النظم القرآني
في بيان صفات المتقين

دكتور
عبد الله رجب سالم درويـش
أستاذ البلاغة والنقد المساعـد
كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهـر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المستخلص

عني القرآن الكريم بالتقوى والمتقين عناية فائقة، فنجد آيات قد اقتصرت على بيان صفات المتقين، وأخرى اقتصرت على ذكر جزائهم، وآيات مزجت بين الجانبين، فاشتملت على ذكر صفات المتقين مقرونة ببيان جزائهم، وما نالوه من الثواب العظيم، والنعيم المقيم في الدنيا والآخرة.

بيد أن هذه الدراسة تقتصر على "النظم القرآني في بيان صفات المتقين".

وتأتي أهميتها من أهمية التقوى ، وقيمتها، ودورها في بناء شخصية المسلم، وبيان المنهج، وتحديد ملامح شخصية المتقين، لتربية النفوس، وغرس هذا الخلق الرفيع في وجدان كل مسلم؛ ليحظى بجنات الله ورضوانه.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف أسرار التعبير، وجماليات الأداء الفني التي أكسبت النظم القرآني سموًا بلاغيًا أظهر لنا صورة مشرقة للمتقين، وإعجازًا بيانيًا، وقع في عقول العرب وقلوبهم، فبهرهم وهم في أوج مجدهم، فأيقنوا أنه الحق من ربهم.

كما تعتمد على المنهج التحليلي الوصفي القائم على توظيف مختلف الفنون البلاغية في كشف أسرار التعبير، ومعرفة ملامح وخصائص النظم القرآني الذي فاق أساليب البشر، وأعجز أرباب البيان.

وقد كشفت عن السموّ البلاغيّ للنظم القرآني في بيان صفات المتقين؛ لما امتازت به الألفاظ من العذوبة، والدقّة في أداء المعاني، وحسن صياغة الجمل والتراكيب، ومراعاة التلاؤم والتناسب، مع الإيجاز، وحسن البيان. وكذلك اعتماده على التصوير الفني ، وتآزر الأفعال، وأداء المفردات والجمل لوظائفها بأساليب متنوعة ؛ كالتقديم، والحذف، والقصر، والإيجاز، والإطناب، والفصل والوصل، والمجاز، والاستعارة وغيرها، مع توظيف بعض فنون البديع كالجناس، والمشاكلة وغيرهما لخدمة المعنى، وتآزرها مع الأساليب البلاغية الأخرى لتحقيق إعجاز النّص القرآني الذي بهر عقول البشر، وملك عليهم قلوبهم بحسن بيانه، وسموّ بلاغته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعـــد:

فقد عني القرآن الكريم بالتقوى والمتقين عناية فائقة، ومن يتأمل تلك الآيات التي وردت في حق المتقين يجد آيات قد اقتصـرت علـى بيـان صفاتهم التي تحلّوا بها، وآيات أخرى اقتصرت على ذكر جـزائهم، وما أعده الله لهم، وآيات مزجت بين هذين الجانبين، فاشتملت على ذكر صفات المتقين وقرنتها ببيان جزائهم، وما نالوه من الثواب العظيم، والنعيم المقيم في الدنيا والآخرة.

بيد أن هذه الآيات اتخذت طرقًا متعددة، وأساليب متنوعة في تـناول الموضوع الذي عرضت له، ويصعب - في هذه الورقـات المعـدودات - تناولها والإلمام بها.

لذلك - ولما يقتضيه المقام، وتستدعيه الأحوال - سوف تقتصر هذه الدراسة على " النظم القرآني في بيان صفات المتقين".

وتأتي أهمية هذا الموضوع من خلال أهمية التقوى، ودورها فـي بناء شخصية المؤمن، وذلك ببيان آيات صفات المتقين التي ترسم المنهج، وتحدّد ملامح الشخصية المثاليّة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم، لتحقق التقوى - ببعديها - كشعور يتمثّـــل في مراقبة الله وامتلاء القلب بخشيته سبحانه، وسلوك يتمثّـــل في الالتزام والامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه، فيسعد المؤمن برضا ربه، والخلود في جنات النعيم.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أسرار التعبيــر، وجماليّــات الأداء الفني، ومعرفة تلك المقوّمات البلاغية التي أكسبت النظم القرآني في بيان صفات المتقين سموًّا بلاغيًّا، وإعجازًا بيانيًّا، أظهر لنا صورة مشرقة للمتقين من خلال ما تحلّوا به من خلال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلمس بعض ملكات البيان القرآني الذي تسلل إلى عقول العرب ونفوسهم، فبهرهم – بعجيب نظمه، وبديع تأليفه – وهم في أوج مجدهم البياني، ذلك النظم البديع هو الإعجاز الذي وقع به التحدي، فأيقنوا أنه الحق من ربهم، وأنه "تنزيل من حكيم حميد".

وتعتمد – تلك الدراسة – في تناولها وعرضها على المنهج التحليلي الوصفي للآيات الكريمة، ذلك المنهج القائم على ذكر الآية – أو الآيات محل الدراسة– أولًا، مع بيان سبب النزول – إن كان هناك سبب – ثم بيان المعنى العام للآيات، ومناسبتها للسياق الذي وردت فيه قبل الكشف عن الوجوه والأسرار البلاغية التي اشتملت عليها تلك الآيات، وذلك من خلال توظيف مختلف الفنون البلاغية، وكشف أسرار التعبير، ودلالات التراكيب في سياقاتها المختلفة، ومقاماتها المتنوعة، ومعرفة ملامح وخصائص النظم القرآني البديع، الذي فاق أساليب البشر، وأعجز الفصحاء وأرباب البيان.

وقد انتظمت الدراسة في تمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، أما التمهيد؛ فقد جاء موضحًا مفهوم التقوى، ومراتبها، وثمراتها، وطرفًا من صفات المتقين وأخلاقهم. وأوضحت في المبحث الأول (بلاغة النظم في سورة البقرة) كيف كانت عناية سورة البقرة بذكر صفات المتقين، والثناء عليهم في موضعين من تلك السورة، وكشفت عن سموّ بلاغة القرآن الكريم، وبراعة إيجازه، وجماليّات التعبير من خلال تآزر الأفعال، وتناسب الجمل في سياقاتها اللائقة بها، وأداء المفردات والجمل لوظائفها ودلالاتها في مقاماتها بالتقديم، والحذف، والإيجاز والإطناب، والقصر، والفصل والوصل، والمجاز، والاستعارة، والتتميم، وحسن الترتيب، وصحة التقسيم، والمشاكلة، والجناس، والتعبير بالجملة الاسمية والفعلية، موضحًا أثر الجرس والإيقاع وموسيقى الألفاظ في التعبير، وكيف عبّرت تلك الآيات بألفاظها وتراكيبها عن ثقة تلك النفوس الزكيّة بالله تعالى، واطمئنانهم لما وعدهم به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الثاني (بلاغة النظم في ســورة الأعــراف) أظهرت قيمة الاستعارة، ودورها في بقاء صورة هذه النفوس الزكيّة طاهرة نقيّة حتى في حال وقوع المعصية " إذا مسّهم طائف من الشيطان"، وتصويرها تصويرًا بديعًا في قمّة السموّ البلاغي من خلال الاستعارة في (مسّهم)، و (طائف)، والتنكير في (طائف) وغير ذلك مما أضفى على النظم روعة وجمالا.

وتناولت في الثالث (بلاغة النظم في سورة يونس)، مبيّنا براعة النظم من خلال بعض الأساليب الواردة في الآية كالقصر، الذي أضفى على المتقين هالة من التشريف والتكريم؛ لدلالته على اختصاصهم بالآيات التي بثّها الخالق سبحانه في هذا الكون الفسيح؛ لأن التقوى هي سبب الانتفاع بتلك الآيات الكونية الدالة على حكمته وعظمته سبحانه وتعالى. وقد جاء ذلك تعريضًا بالكافرين، وبغفلتهم عن آيات الله تعالى التي لا يغفل عنها إلا من أعمى الكفر والضلال بصره وبصيرته.

أما المبحث الرابع؛ فقد جعلته خاصًا بالحديث عن (خصائص النظم القرآني في بيان صفات المتقين)، ذلك النظم الذي بلغ المنزلة العليا في التفوق البياني، والسموّ البلاغي، فذكرت بعضا من تلك الخصائص والسمات التي تمثلت في الدقة في اختيار الألفاظ، وحسن صياغة الجمل والتراكيب، ومراعاة التلاؤم والتناسب، مع الإيجاز وحسن البيان، والاعتماد على التصوير الفني، فضلا عن المشاكلة، والجناس، وصحة التقسيم وغيرها من فنون البديع التي وُظّفت بدقة لخدمة المعنى، وتآزرت مع سائر الفنون البلاغية لتحقيق إعجاز النص القرآني في تلك الآيات، ذلك الإعجاز الذي بهر عقول البشر، وملك عليهم قلوبهم بحسن بيانه، وسموّ بلاغته.

ثم الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

والله أسأل أن ينفع به، وهو حسبي ونعم الوكيل...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمهيد

- مفهوم التقوى:

التقوى – في اللغة – أصلها: "وَقْوَى (فَعْلَى) من (وَقَيْتُ)، فلمّا فُتِحَت الواو – أبدلت تاءً فتُركت في تصريف الفعل في التُّقَى والتَّقْوَى – بمعنى: التقاة والتقية"(١)، وجميع تصاريفها تدور حول معاني: الحفظ والصون، والكلاءة والحذر والحماية، يقال: "وقاه الله وَقْيًا ووقاية وواقيــة: صــانه... ووقيت الشيء أقيه، إذا صنته وسترته عن الأذى(٢)." و"وقاه ما يكره: حماه منه"(٣).

قال تعالى: ﴿... فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها النــاس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٤). أي: فاجعلوا حاجزًا بينكم وبين هذه النــار بصالح أعمالكم.

وجاء في الحديث قوله – ﷺ –: "إنما الإمام جُنَّة يقاتَل من ورائــه، ويتقى به"، " أي: أنه يدفع به العدو، ويُتَّـــــقي بقوّته " (٥).

وفي الحديث عن علي – ﷺ –: " كنا إذا أحمرّ البأس اتقينا برسول الله – ﷺ –" (٦)، "أي: جعلناه وقاية لنا من العدو قدامنا، واستقبلنا العدو به،

(١) كتاب العين، مادة (وقى).

(٢) لسان العرب، مادة (وقى).

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، مادة (وقى).

(٤) البقرة ٢٤.

(٥) صحيح البخاري، ج٣، ١٠٨٠، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقي به. صحيح مسلم، ج٣، ١٤٧١، باب الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقي به.

(٦) مسند الإمام أحمد، ج١، ١٥٦، مسند علي بن أبي طالب. صحيح مســلم، ج٣، ١٤٠١،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقمنا خلفه وقاية"(١).

والمعنى الاصطلاحي للتقوى مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمعنى اللغوي، فالتقوى التي أولاها القرآن الكريم قدرًا كبيرًا من عنايته هي في حقيقتها تجمع كل تلك المعاني اللغوية: الحفظ والحذر والصون والحماية، ذلك أن "التقوى - في تعارف الشرع - حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور"(٢). وقال علي بن أبي طالب - ﷺ -: " التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

أما (سيّد قطب) فيرى أن " التقوى: حساسية القلب، وشعوره بالخوف من الله وتحرّجه من غضبه، وطلبه لرضاه... وهي الحارس اليقظ داخل الضمائر، وفي حنايا القلوب تكفّها عن مواضع الحدود." (٣).

والتقوى لا تقتصر على الجانب الديني الروحاني بفعل الطاعات واجتناب المحرمات فحسب، بل تمضي بالمؤمن إلى أبعد من ذلك بربط هذا الجانب بالجانب الأخلاقي العملي، فهي - كما قيل -: "رابطة الدين بالأخلاق، وحدّها هو:الإيمان المقرون بالعمل الصالح"(٤).

فالتقوى هي تلك القيمة العليا التي تستقيم على أساسها علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته بالناس من حوله، فهي تعني أن يجتهد الإنسان في حفظ نفسه، ودفع كل ما يمكن أن يجلب الضرر لها أو لغيرها، وذلك بالتزام السير على منهج الله، والحذر كل الحذر من الخروج عنه أو مخالفته(٥).

باب في غزوة حنين.

(١) لسان العرب، مادة (وقى).

(٢) مفردات غريب القرآن ٨٨١.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤، ٣٩.

(٤) التقوى بين الخلق والسلوك ١٩.

(٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ١٠١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمتقون هم تلك الفئة المميّزة التي استطاعت أن تترجم ما تلفظ به لسانها من شهادة الإسلام، وما وقر في قلبها من الإيمان بـالله – سـبحانه وتعالى – إلى سلوك عملي بتوخي رضا الله – عزّ وجلّ – وتجنّب سخطه في كل صغيرة وكبيرة.

ولسعة مفهوم التقوى وكونها أم الفضائل[١] التي دعا إليها القـرآن وحثّ عليها ورد لفظها فيه على عدة أوجه، فقد جاءت التقوى في القـرآن بمعنى الخوف والخشية، كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ [٢]، وجاءت بمعنى (العبادة) كما فـي قولـه تعالى: ﴿ يُنزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ [٣]، وجاءت بمعنى (ترك المعصية)، كما في قوله تعالى: ﴿...وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [٤]، وبمعنى (التوحيد) على نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إن الذين يغضـون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفـرة وأجر عظيم ﴾ [٥]، وذكرت بمعنى (الإخلاص) نحو قوله تعالى [٦]:﴿ ذلـك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ [٧].

ولم يكن هذا التعدد في معاني التقوى في القرآن إلا لبيان أن التقوى

---

(١) المصدر السابق ٢٣.

(٢) الحج: ١

(٣) النحل: ٢

(٤) البقرة: ١٨٩

(٥) الحجرات: ٣

(٦) الحج: ٣٢

(٧) ينظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ، مج٤ / ١٠٨٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي جماع ذلك كله، وكل تلك المعاني هي من مقتضياتها، فأطلقت عليها من باب إطلاق الشيء على ما يقتضيه(١)، فأساس التقوى هو التوحيد، والدافع إليها هو الخوف والخشية، ومظهرها الإخلاص في العمل، والاجتهاد في العبادة، والإعراض عن المعاصي ما كبر منها أو صغر. وبذلك يكون القرآن الكريم قد أعطانا تصورًا كاملًا لمفهوم التقوى، ولما ينبغي أن يكون عليه المتقي في اعتقاده وسلوكه، وفي ظاهره وباطنه.

- مراتب التقوى، وثمراتها:

لقد دعانا المولى - جلّ وعلا - للتقوى، واعتبرها خير ما يمكن أن يكسبه الإنسان لصلاح أمر دنياه وآخرته، فالتقوى هي مطلوب الحق - سبحانه وتعالى - من عباده في جميع التكليفات الشرعية، وهي معيار ومقياس التفاضل بين الناس، قال تعالى: ﴿.... إن أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾ (٢) فعلى قدر التزام المسلم بتقوى الله في كل أقواله وأعماله، وعلى قدر مجاهدة النفس في سبيل الترقي في مراتبها يكون نواله لأسمى وأعلى درجات الكرامة عند الله - جلّ وعلا - ولا ينال منزلة (الأكرم) حتى يكون قد توّج نفسه - بفضل الله - بلقب (الأتقى) الذي وصل إلى القمة، ونال شرف الدنيا والآخرة.

ولكي يصل المسلم إلى تلك المنزلة الرفيعة لا بد وأن يجتاز مراتب التقوى الثلاث، وهي: أن يقي الإنسان نفسه العذاب الذي يخلد صاحبه في النار، وذلك بتحقيق التوحيد، والتبرؤ من كل ما من شأنه أن يقدح في عقيدة

---

(١) مفردات غريب القرآن، مادة (وقى).
(٢) الحجرات: ١٣.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

المسلم ويخرجه من دائرة الإسلام، كالكفر والشرك والنفاق، وقد جاءت الإشارة إلى هذه المرتبة في قوله تعالى: ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ [١]، فالمراد بـ (كلمة التقوى) هنا: " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"[٢] فهي "رأس كل تقوى"[٣].

ويلي ذلك الصبر والمجاهدة بتوقي المعاصي، ويتحقق ذلك بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي والمحظورات، وذلك بمجاهدة النفس، والصبر على مخالفة أهوائها، وكبح شهواتها، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ ولو أن أهل الكتاب ءامنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾[٤]، فالتقوى المرادة هنا هي تقوى المآثم والمحارم التي كانوا يتعاطونها[٥]، فالإيمان لابد أن يكون مقترنا بالعمل؛ لوقاية النفس من غضب الله وسخطه، بفعل ما أمرنا به، واجتناب ما نهانا عنه.

ويلي ذلك مرتبة الطمأنينة، وهي أسمى المراتب وأعلاها، لأن النفس تكون فيها مطمئنة بالله، مشغولة بالركون إليه عن كل ما سواه، وتتحقق تلك المرتبة بأن يتنزه المسلم عن كل ما يشغل سرّه عن الله - سبحانه وتعالى - فقلبه مليء بحب الله، ونفسه مستأنسة به، لا تحدثه بمعصية، ولا تغريه بخطيئة، بل تحثه دوما للترقي في منازل الطاعات، وتدفعه إلى أسمى المراتب وأعلى الدرجات، ولعل هذه المرتبة هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ

---

(١) الفتح: ٢٦،

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٤٠.

(٣) السابق نفسه.

(٤) المائدة ٦٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦١٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا وأنتم مسلمون ﴾ (١).

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - مدركين لحقيقة هـذه المرتبة وعظمها ووعورة الطريق إليها، لذلك عندما أنزل الحق - جـلّ وعـلا - الآية السابقة وسمعها الصحابة - ﷺ - استضعفوا أنفسهم أمام مطلوبها، قال سعيد بن جبير: لما نزلت هذه الآية: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ اشتد القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرّحت جباههم، فـأنزل الله هـذه الآية(٢): ﴿ فاتقوا الله ماستطعتم ﴾ (٣).

فالتقوى طريقها طويل وشاق، والوصول إلى أعلى مراتبها يحتـاج إلى جدّ واجتهاد، وصبر ومجاهدة، والمسلم مأمور بأن يأخذ نفسه بـالترقي في مدارجها قدر استطاعته، وألا يعرض عنها كل الإعراض حتى لا يحرم أجرها، ولا تحجب عنه بركتها.

وكما أمرنا القرآن الكريم بالتقوى، وحثّـنا عليها وضّح لنا فـي العديد من آياته ثمراتها التي من شأنها أن ترغّـب المؤمن في هذا الخلـق العظيم، وأن تزيده حرصاً على التخلّـق به والتزامه في كافة شؤونه، ولعل من أبرز هذه الثمرات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم: (٤)

أولا: حبّ الله تعالى، فالتقوى تدخل من يتّصف بها في زمرة تلك الطائفـة المحظوظة التي حظيت بحب الله، وقد أكّد المولى - جـلّ وعـلا - هـذه النعمة العظيمة التي ينالها المتقون في أكثر من موضع من كتابه الحكـيم،

---

(١) آل عمران ١٠٢.

(٢) التغابن ١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٠٣

(٤) ينظر: صفات المتقين في أقوال الأئمة والصالحين ص٢٣ وما بعدها بتصرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول – سبحانه وتعالى -: ﴿... إن الله يحبّ المتقين ﴾ [١].

ثانيا: معيّة الله تعالى،قال تعالى﴿... واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[٢] فالله – سبحانه وتعالى – مع المتقين حيثما كانوا بالحفظ والنصر والتمكين والتأييد[٣]، والله معهم يحميهم ويرعاهم ويدرأ عنهم كل مكروه.

ثالثا: ولاية الله تعالى، قال تعالى: ﴿... وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴾ [٤].

رابعا: العلم، فتقوى الله تعالى هي الطريق لإزالة الحجب عن العقل، وفتح القلوب للمعرفة، وتهيئة الأرواح للتعلم، قال تعالى: ﴿... واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾ [٥].

خامسا: الحكمة وفصل الخطاب، فالتقوى لا تفتح العقل والقلب فقط لتقبّل العلم، بل إنها تمنح المتقي ذهنا صافيا، ورأيا صائبا، وقدرة فائقة على التفريق بين الحق والباطل، وبين ما يجب فعله وما ينبغي تركه، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ [٦]، والفرقان أي: " الفصل بين الحق والباطل "[٧].وهذا من امتنان الله على المتقين، فهو يؤتيهم من الحكمة ما يعينهم على سلوك طريق الخير والنجاة.

---

(١) التوبة ٤، ٧.

(٢) البقرة ١٩٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢١٣.

(٤) الجاثية ١٩.

(٥) البقرة ٢٨٢.

(٦) الأنفال ٢٩.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٨٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سادسا: فتح البركات من السماء والأرض، قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾(١)، وهي بركة عامة يجدها المتقون في كل ما ينزل من السماء ويخرج من الأرض، ويحسون بها في أحوالهم وأولادهم، وفي أوقاتهم وأعمارهم، وفي كل مناحي حياتهم، إنها البركات بكل أنواعها وأشكالها، هي جلب للخيرات والأرزاق، وتحقيق للانتفاع بها(٢).

سابعا: تفريج الكرب، وتيسير الأمور، والنجاة من الشدائد، فما من كرب أو ضيق أو حزن أو همّ إلا وتقوى الله سبب لذهابه والنجاة منه، فالله - سبحانه وتعالى - معهم يحفظهم ويرعاهم، ولا يترك الهموم والكربات تتسلط عليهم، قال تعالى: ﴿... ومن يتّق الله يجعل له مخرجا﴾(٣)، وقال تعالى:﴿... ومن يتّق الله يجعل له من أمره يسرا﴾(٤).

ثامنا: قبول العمل، قال تعالى: ﴿... قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾(٥).

تاسعا: إصلاح العمل، وتكفير السيئات وغفران الذنوب، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾(٦).

عاشرا: النجاة من النار، وأيّ ثمرة أجلّ من هذه الثمرة التي تأتي تتويجاً لسعي المتقين لقاء كل ما بذلوه من جهد في سبيل درء هذا العذاب المفجع عنهم،

---

(١) الأعراف ٩٦.

(٢) البحر المحيط ٤/٣٥٠.

(٣) الطلاق ٢.

(٤) الطلاق ٤.

(٥) المائدة ٢٧.

(٦) الأحزاب ٧٠، ٧١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ساق لهم هذه البشارة في قوله تعالى: ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾(١).

حادي عشر: الخلود في الجنة، فقد أعدّ الله - سبحانه وتعالى - جنته لتكون تلك الدار التي يحطّ فيها المتقون رحالهم، ويستريحون من كبد الدنيا وعنائها، ويقطفون أشهى ثمار تقواهم، وأكثرها إمتاعًا لأنفسهم وأرواحهم، قال تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين﴾(٢).

تلك هي الثمرات التي يمنحها المولى - جلّ وعلا - بفضله للفرد والمجتمع إذا اتخذوا من تقوى الله منهجاً وخلقاً وسلوكاً، ولو لم يكن للتقوى هذا الأثر الإيجابي العظيم، وهذا النفع العميم لما كانت هي وصيّة الله للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿... ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله...﴾(٣)، ولماعدّت خيرزاد يتزوّد به المرء، قال تعالى: ﴿... وتزوّدوا فإن خير الزّاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾(٤) وخير لباس يستر به عوراته، ويقي نفسه مهالك الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ يابني ءادم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير...﴾(٥).

---

(١) مريم ٧١، ٧٢.

(٢) آل عمران ١٣٣.

(٣) النساء ١٣١.

(٤) البقرة ١٩٧.

(٥) الأعراف ٢٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صفات المتقين وأخلاقهم:

إن جميع ما ذكره القرآن الكريم من صفات للمتقين تؤكد على أن شخصية المسلم التقيّ هي الشخصية المثلى التي يسعى الدين الإسلامي إلى تربية أبنائه عليها، وما ذلك إلا لأنها جمعت بين نقاء الظاهر والباطن، وبين استقامة المعتقد والسلوك، وقد أشاد القرآن الكريم بصحة معتقدهم في أوائل سورة البقرة، حيث قال تعالى: ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾(١).

فالإيمان هو القاعدة التي ينطلق منها المتقون، وهو أهم صفة من صفاتهم، فهم يحققونه تحقيقاً كاملاً بكافة أركانه ومقتضياته، إنهم يؤمنون بالله – سبحانه وتعالى – وباليوم الآخر، وبالملائكة، والكتب، والنبيين، وبالقدر خيره وشره، ويظهر أثر ذلك الإيمان في حياتهم وفي تكوين شخصيتهم، وفي أفعالهم وأقوالهم، لأنه هو الموجّه لتصوراتهم، وهو المنهج الذي يسيرون عليه، ويتمسكون به فلا يحيدون عنه أبدا.

وتبرز سمة الإيمان الصادق النقيّ لدى المتقين في حرصهم على صلاح العمل، واستقامة السلوك سواء في علاقتهم مع الله – سبحانه وتعالى – أو في علاقتهم مع الناس من حولهم، ففي علاقتهم مع الله – سبحانه وتعالى – يحرصون على بقاء هذه العلاقة قوية متينة، فهم يلتزمون التزامًا كاملاً بأداء فرائضه، وإقامة شعائره، قال تعالى مبينا التزام المتقين بأداء

---

(١) البقرة ١-٥.

الفرائض وتحقيق الإيمان بالعمل الصالح: ﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قِبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وءاتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾(١).

والإيمان بالله – سبحانه وتعالى – هو الذي سكب في هذه النفوس استشعار عظمة الله وخشيته في السر والعلن، فالمتقون لا يكتفون بأداء الفرائض واجتناب الحدود والنواهي فحسب، بل يسعون ــــــ قدر وسعهم ــــــ للتزوّد من نوافل الطاعات، ويتقربون إلى الله بالدعاء والتوبة وكثرة الاستغفار، والصلاة في جوف الليل، وبذل الأموال بسخاء في سبيل الله، قال تعالى مشيدًا بتحقق هذه الخصال فيهم: ﴿ إن المتقين في جنات وعيون * ءاخذين ما ءاتهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾(٢).

وقد أشاد القرآن الكريم ببصيرة المتقين التي تمثّل سدًا منيعا وحصنًا حصينًا يقيهم مكائد الشيطان ويحملهم على العودة السريعة لله – سبحانه وتعالى – إن ارتكبوا ذنبًا أو وقعوا في خطيئة، قال تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون ﴾(٣).

---

(١) البقرة ١٧٧.

(٢) الذاريات ١٥-١٩.

(٣) الأعراف ٢٠١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أهم سمات المتقين تبجيلهم واحترامهم للرسول - ﷺ - قـ
تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إ
الله سميع عليم * يا أيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النـ
ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم
تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتـ
الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾[1]، وهذه صفة ملازمة للمتقـ
في علاقتهم بالرسول - ﷺ - في حياته وبعد مماته، فالتزام الأدب معه
ﷺ - بغضّ الصوت وعدم رفعه يقتضي عدم رفع الصوت عند قبره تقد
له - ﷺ - في كل حال.

ولم تكن الاستقامة هي سمة المتقين في عقائدهم وعباداتهم فحسـ
بل في أخلاقهم أيضًا، فالإيمان الحقيقي هو الذي يتجسّد في أخلاق فعليـ
ومن الأهداف السامية لهدي هذا الدين هو جعل الخلق الحسن سجيّة متأصـ
في نفس المسلم، والمتقون هم الذين يتحقق فيهم هذا الهدف الأسمى؛ لأنهـ
يتصفون بجملة من الخلالَ الكريمة التي امتدحهم القرآن الكريم بها، قـ
تعالى في حق المتقين مشيدًا بأخلاقهم: ﴿... الذين يقولون ربنا إننا ءامنـ
فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتـ
والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾[2]، وقال تعالى في حقهم: ﴿ والموفـ
بعدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذ
صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[3].

---

(١) الحجرات ١-٣.

(٢) آل عمران ١٦، ١٧.

(٣) البقرة ١٧٧.

ومن أبرز صفات المتقين أنهم لا يتّسمون في توجّههم العقلي ونهجهم الفكري بالتقليد الأعمى والتبعية المطلقة، بل يدركون أن القرآن الكريم قد دعا إلى إطلاق العنان للعقل والفكر كي يسبحا في ملكوت الله - سبحانه وتعالى - ويتأملا ما فيه من دلائل على قدرة الله - سبحانه وتعالى - ووحدانيته، فالمتقون يعرفون كيف يستثمرون حواسهم ويستغلون عقولهم بدوام التفكر والتدبر، قال تعالى: ﴿ إنّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾[1].

إن هذه الخصال التي يتحلّى بها المتقون تتكامل مع بعضها لتخلق إنسانًا سويًا مستقيمًا بنّاءً، لا يركن إلى الدنيا، ولا يعرض عنها كل الإعراض، بل يسلك في التعامل معها منهجًا وسطًا، فيتخذ من الإيمان والعمل الصالح والخلق الرفيع سلاحًا ليعمرها بالخير والحق والعدل، ويملؤها بالألفة والمحبة والتواصل، ولا غاية له من ذلك كله إلا أن يدرأ عن نفسه غضب الله، ويحظى بحبه ورضاه.

---

(١) يونس ٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- المبحث الأول: بلاغة النظم في سورة البقرة:

وجّهت سورة البقرة عناية خاصّة للمتقين، فأثنت عليهم، وذكرت صفاتهم ومناقبهم في موضعين، كانت الآيات الواردة في مفتتح السورة هي أولهما، وهي قوله تعالى:

﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾(١).

أما الموضع الثاني فهو قوله تعالى: ﴿ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾(٢).

وهذان الموضعان هما محل حديثنا في الصفحات التالية:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الأول:

قال تعالى:

﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾(١).

نزلت هذه الآيات – على الراجح –(٢) في المتقين الذين قبلوا الحق الذي جاء به المصطفى – ﷺ – واتصفوا بهذه الصفات دون تحديد لزمانهم أو مكانهم، أو الفئة التي ينتسبون إليها، ولذلك شرّفهم المولى – عزّ وجلّ – وكرّمهم حيث صدّر السورة التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن بذكرهم، والثناء عليهم(٣).

فالآيات هنا تشير إلى اختصاص المتقين بالهداية التي جاء بها القرآن الكريم، هذا الكتاب الكامل البعيد عن مظنّة الشكّ والريب بوضوح دلالته وسطوع بيانه، وقد استحقّ المتقون هذا الشرف العظيم؛ لأنهم التزموا المنهج الذي أرشدهم إليه – سبحانه وتعالى – في كتابه الكريم، فهم يؤمنون

---

(١) البقرة ١–٥.

(٢) عن مجاهد قال: "أربع آيات من أول هذه السورة نزلت في المؤمنين، وآيتان بعدها نزلت في الكافرين، وثلاث عشرة آية نزلت في المنافقين"، وقال مقاتل بن سليمان: "الآيتان الأوليان في المؤمنين من المهاجرين والأنصار، والآيتان بعدهما في من آمن من أهل الكتاب". والأولى هو الأخذ بقول مجاهد، ويؤيد ذلك قول ابن كثير أن هذه "الآيات الأربع عامّات في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي، من إنسيّ وجنيّ، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى" – ينظر: تفسير القرآن العظيم ٤٩/١.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٥/١.

بما غاب عن حواسهم مما أخبرهم به المولى – عزّ وجلّ – على لسان نبيه – ﷺ –[١]، وقيل: (بالغيب) أي: " بضمائرهم ويخشونه في سرائرهم وخلواتهم، بخلاف المنافقين"[٢].

وقد أشادت الآيات بإقامتهم للصلاة بالمحافظة على أدائها في مواقيتها بتمام أركانها وواجباتها وسننها، كما أشادت بإنفاقهم مما امتنّ الله تعالى به عليهم من رزق، مؤدّين بذلك جميع التزاماتهم المالية[٣].

وتواصل الآيات ثناءها على المتقين فتصفهم بأنهم "يؤمنون بما أنزل إليك"، أي: القرآن، "وما أنزل من قبلك" أي: الكتب السابقة التي أنزلها الله تعالى على الرسل السابقين، وقد وصل المتقون إلى منزلة استحقوا معها أن يوصفوا بمنتهى اليقين "وبالآخرة هم يوقنون"، فهم يصدّقون تصديقا لا يخالطه شكّ ولا شبهة بالآخرة، وبكل ما يتعلق بأمرها من بعث ونشور، وعرض وحساب، وجنّة ونار، وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة بالآخرة[٤].

وتختتم الآيات ثناءها على المتقين بإثبات بلوغهم الغاية التي يسعى كل إنسان للوصول إليها، فهؤلاء المتقون المتصفون بالصفات السابقة "على هدى من ربهم"، أي: على نور وبصيرة، واستقامة وسداد وفّقهم إليها الله – سبحانه وتعالى – وامتنّ عليهم بها بكرمه وفضله، "وأولئك هم المفلحون" الذين سلكوا طريق النجاة، ففازوا بما كانوا يطمعون فيه من الأجر الجزيل، والثواب العظيم، ونجوا من شرّ ما كانوا يحذرونه من عذاب الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦٣/١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٧/١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨٠/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسخطه(١).

أما عن مناسبة الآيات للسياق الذي وردت فيه؛ فقد كان مجيء تلك الآيات التي اختصّت ببيان صفات المتقين بعد آيتين من أول السورة أشارتا بألطف إشارة، وأبلغ عبارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وإلى كماله المطلق، وسموّ منزلته، وعلوّ مكانته، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، فبيّـنت هذه الآية الكريمة أن اللائق لكتاب علـى هذا القدر من الإعجاز والكمال أن تكون هدايته لا نظير لها، ثم اختصّـت المتقين بهذه الهداية البالغة أرفع درجات الهدى وأسماها، فكان من بلاغـة القول وأسباب البراعة في البيان أن يعقب هذا الاختصـاص بمـا يكشـف الغموض الذي يكتنفه، فيبين سببه، ويوضح علّته(٢).

ولذلك جاءت الآيات التي تلتها لتبيّـن أن سبب اختصاصهم بهـذه الهداية الجليلة هو التشريف والتكريم(٣)، " فإنهم لما كانوا هـم المنتفعـون بالهداية خُصّوا بالذكر مدحًا لهم"(٤). وقد تجلّى انتفاعهم بهداية القرآن الكريم فيما أثبتته لهم هذه الآيات من صفات جمعت لهم بين سلامة المعتقد وهـو الأصل والأساس، واستقامة السلوك، وهي غاية الهداية وهـدفها، وحسـن المنقلب والمآل والمصير، وهو الثمرة المرجوّة.

وإذا كانت هذه الآيات بيانا لصفات تلك الفئة المسـتحقّة الامتنـان عليها بالهدى والفلاح، فليس مقصود هذا البيان هو مجرد المدح، بل يهدف إلى أبعد من ذلك، فقد وضّح - بذكر صفات المتقين - طريـق الهدايـة،

---

(١) المصدر السابق ١/١٢٧.

(٢) روح المعاني ١/١١٣.

(٣) البحر المحيط ١/١٦١.

(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/١٣٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصفات سالكيه ترغيبا في اتــباع أثرهم، والسير على نهجهم.

بدأت الآيات وصف المتقين بقوله تعالى: ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾، فإنه لمّـا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي يستقى منه المسلمون منهجهم جاءت الآية السابقة - وهي قوله تعالى: "ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقـين" لتكون بمثابة القاعدة التي تحدّد ذلك المنهج، وتقرّر حقيقته.

وفصل بينها وبين سابقتها لشبه كمال الاتصال(١)، وذلك بتضمين الجملة الأولى سؤالاً عن سبب الحكم، فإنها لما حكمت باختصاص المتقين بهداية القرآن، فبوّأتهم بذلك شرفا عظيما، أثارت في نفوس المتلقّين سؤالا ملحّا، وبعثت فيهم شوقاً عارما لتلقي جوابا شافيا عنه.

وقد سارعت الآيات بإعطاء الجـواب ليستشـعر المتلقّـون مدى الارتباط الوثيق بين المنهج والسلوك المنبثق عنه، والباعث الذي يدفع هذه النفوس الزكية إلى التزام ذلك المنهج، وترجمته إلى سلوك عملي، فإذا كان الكتاب المعجز هو المنهج، والسلوك ما جرى توضيحه في قوله تعـالى: ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقنـاهم ينفقـون * والـذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ فإن الباعث هو التقوى، تقوى الله واستشعار رقابته الدائمة.

وقد تمثّـل الجواب في هذه الآية في ثلاث جمل تمثّل كـل واحدة منها سمة من سمات المتقين (يؤمنون بالغيب... يقيمون الصـلاة... ممـا

---

(١) من مواضع الفصل بين الجمل (شبه كمال الاتصال)، وهو: أن تكون الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جوابا له" ينظر: الإيضاح ٢٥٥/١، كذا: علم المعاني - د/ بسيوني فيود ص٢٦٣.

رزقناهم ينفقون) فأبرز ما يميز شخصية المتقين أنهم ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ ويؤمنون بمعنى: يصدقون، ولكن التعبير القرآني يعدل عنه إلى الفعل (آمن)، لأن أصله من "الأمن والأمانة ومعناهما الطمأنينة"[١]، فالمقصود هنا ليس مجرد التصديق، بل التصديق الذي يصل إلى درجة الطمأنينة لذلك المصدق والموثوق به، فالتصديق لا يكون مؤثرا في حياة الإنسان إلا إذا انشرحت نفسه له واطمأنت به.

والفعل (آمن) يعدّي (بالباء) ويعدّي باللام، وإنما عدّي هنا بـ (الباء) لإرادة تضمينه معنى التصديق والإقرار والاعتراف[٢]، فالمراد بـ ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ أي: "يعترفون به، أو يثقون بأنه حقّ"[٣]، أما تعديته باللام فلتضمينه معنى الإذعان[٤].

و (الغيب) مصدر من (غاب)، ويقصد به في كلام العرب: "كل ما غاب عن الإنسان"[٥]، فهم "يؤمنون بكل ما غاب عن حواسهم مما أخبرهم به الرسول - ﷺ -، فيؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر"[٦].

ومن سموّ بلاغة القرآن الكريم، وبراعة إيجازه أنه عبّر هنا بكلمة واحدة عن كمّ كبير من الحقائق والأمور الغيبية التي يحتاج عدّها إلى تطويل لا يتسع المقام له، فالمقام هو مقام مدح للمتقين وثناء عليهم بسماتهم

---

(١) البحر المحيط ١/١٦٢.

(٢) الكشاف ١/٨٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) روح المعاني ١/١١٣.

(٥) المعجم الوسيط، مادة (غاب).

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١/١٦٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي اشتهروا بها، فصارت كالعلامة الدّالة عليهم، فناسب أن تكون تلك الدلالة بإشارات مقتضبة يسيرة لتعلق بالقلوب، وترسخ في الأذهان.

وقد جعل المولى – جلّ وعلا – الإيمان بالغيب أول سمات المتقين، لأنه يمثّل أبرز ملامح شخصيتّهم، بل إنّ قوة إيمانهم بالغيب واستشعارهم ارتباط حياتهم به بدءًا وانتهاءً هو الذي سكب في نفوسهم هذا الشعور بتقوى الله، وهو الذي دفعهم إلى تحقيق معنى التقوى في خلقهم وسلوكهم، فما كان من الممكن أن يكونوا متقين لولا أنهم آمنوا إيماناً حقيقياً وقر في قلوبهم، واستيقنته نفوسهم بالله وهو غيب، وبالوحي وهو غيب، وباليوم الآخر وهو غيب، وبالثواب والعقاب وهو غيب.

لا جرم أن الإيمان بالغيب أولى بالتقديم؛ لأنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المسلم بمجملها، وهو الأصل الذي يَصدُر عنه الإيمان، كما أنه هو الموجّه الذي يحدّد للمؤمن نهجه، ويصوغ سلوكه وفكره ومشاعره، فضلا عما فيه من ارتقاء بالإنسان، وتحرير لذاته التي لم يرد لها المولى سبحانه أن تظلّ حبيسة لما تدركه حواسّه فحسب.

بهذا التعبير الموجز عبّرت الآيات عن صحّة المعتقد لدى المتقين، وعن شموليّة القاعدة التي يبنون عليها تصوّرهم للحياة وللوجود، ولأن هذه الجملة كانت كافية للقيام بذلك المعنى وأدائه ببلاغة متناهية اكتفي بها، أما في جانب السلوك العملي الذي هو شاهد ذلك الإيمان، ودليل تحقّقه تحقّقًا كاملًا في نفس المؤمن فقد عُبّر عنه بجملتين: ﴿ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾.

وجاء هذا التقسيم مناسبًا لطبيعة السلوك الإنساني الذي ينقسم شقّين: شقّ يتعلق بذات الإنسان في علاقتها مع الله تعالى، وشقّ يتعلق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بذات الإنسان في علاقتها بالمجتمع المحيط بها، فاستوعبت هاتان الجملتان هذين الجانبين بأسلوب بديع، وإيجاز لا نظير له.

فأول ما يميّـز سلوك المتقين أنهم ﴿يقيمون الصلاة﴾، ولنتأمل مدى سمو الأسلوب القرآني في وضع (يقيمون) بدل (يؤدّون) أو (يحـافظون)، فعند الرجوع إلى مادة (قَوَمَ) في كتب اللغة نجد أنها تشير إلى عـدد مـن المعاني: فالقيام "نقيض الجلوس"[١]، ويأتي بمعنى (العزم)[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿وأنّه لما قام عبد الله يدعوه كـادوا يكونـون عليـه لبـداً﴾[٣] أي: عزم[٤].والقيام بمعنى: "المحافظة والإصلاح"، ومنه قولـه تعـالى: ﴿...إلا مادمت عليه قائما﴾،أي: ملازمًا محافظا[٥]، وأقام تأتي بمعنـى:أدام[٦]، و" قام الشيء واستقام: اعتدل واستوى"[٧].

وإنا لنلمس من خلال المعنى المعجمي كيف استطاع الفعل (يقيمون) أن يصف علاقة المتقين بالصلاة وصفًا دقيقًا، فهم يؤدونها بعزيمة وثبـات دون تكاسل أو تراخ، محـافظين ومـواظبين عليهـا، وملازمـين لهـا، وحريصين على أن تأتي مستوية الأركان والواجبات والسنن، فلا يقع فيهـا خلل ولا نقص ولا تقصير.

وتكتمل ملامح سلوك المتقين العملـي بجملـة ﴿ومـمـا رزقنـاهم

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم، مادة (قوم).

(٢) مفردات غريب القرآن، مادة (قوم).

(٣) الجن ١٩.

(٤) لسان العرب، مادة (قوم).

(٥) السابق نفسه.

(٦) السابق نفسه.

(٧) المحكم والمحيط الأعظم، مادة (قوم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينفقون﴾، ورغم أن الخلاف قد وقع في الآية حول ما إذا كان المقصود بالإنفاق هنا الزكاة المفروضة أم النفقات الواجبة أم المستحبة أم تشملها جميعا[1]، إلا أن الآية جاءت على نحو يوحي بشمولية التعبير القرآني، وبعدم إرادته جانبًا من الإنفاق أو نوعًا منه دون آخر، فمن جمال التعبير في هذه الآية أنه في دلالته على عموم الإنفاق لم يقتصر على نوعية النفقة من حيث هي واجبة أم مستحبة، بل دلّ على العموم في نوعية ما ينفق - أيضا- بحيث اشتملت على كل ما يمكن أن ينتفع به الإنسان.

وقد تآزر الفعلان اللذان اشتملت عليهما الجملتان (رزقناهم، ينفقون) في الدلالة على أن الإنفاق بمعناه العام الذي لا تحدّه حدود هو سجيّة المتقين وصفتهم التي لا تفارقهم ولا تنفصل عنهم، فالرزق - كما جاء في لسان العرب - ما ينتفع به، و " الأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم"[2]. ولما كانت هذه الآية في تعداد مناقب المتقين وصفاتهم جاءت بعموم الإنفاق ؛ لأن هذا المعنى أليق بمقام التقوى[3]، وهو أسمى المقامات وأعلاها منزلة.

وقد تضمن التعبير بالفعل (رزقناهم) إيماءات أخرى أضفت على الأسلوب سموًا بلاغيًا ما كنا لنشعر به لو استبدل بـ (أعطيناهم) أو (وهبناهم)؛ لأن الرزق هو: "العطاء الجاري في الحكم على الإدرار، ولهذا يقال: أرزاق الجنود؛ لأنها تجري على إدرار"[4]، فهم ينفقون من هذا الرزق الذي امتنّ الله - سبحانه وتعالى - عليهم به، وتكفّل لهم بدوامه واستمراره،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/١٢٥.

(٢) لسان العرب، مادة (رزق).

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٤٨.

(٤) الفروق اللغوية ١٣٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الإنفاق دلالة على الاطمئنان لما عند الله، واليقين بأن رزق الإنسان لا يمكن أن يفوته.

وإسناد الفعل إلى الضمير العائد على الله - سبحانه وتعالى - "رزقناهم"؛ للإشارة إلى أن المتقين إنما ينفقون مما امتنّ الله عليهم به من رزق حلال طيّب.

ومن جماليّات التعبير هنا التقديم في قوله ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، حيث قدّمت متعلقات الفعل للاختصاص والأهمية(١)، أريد أولًا التنبيه على أنهم لا ينفقون كل أموالهم، بل يخصّون بعضها بالإنفاق في وجوه الخير تأكيدًا للمعنى الذي أدّته (مِن)، كما أريد توجيه الاهتمام إلى أن ما ينفقونه ليس من عند أنفسهم، ولا فضل لهم في اكتسابه، بل هو زرق من الله - تعالى - امتنّ عليهم به، فإنفاقهم منه إنما هو أداء لحقّ الله فيه، وشكر على نعمه المتوالية التي لا تحصى ولا تعدّ، ولذلك أسنده لنفسه - سبحانه - ولم يسنده لكسب العبد(٢).

هذا فيما يتعلق ببلاغة التعبير في كل جملة على حده، أما إذا تأملنا علاقة هذه الجمل الثلاث ببعضها لمسنا ما فيها من بلاغة التقسيم، أو ما يعرف بـ (صحة التقسيم) (٣)، فقد استوعبت هذه الآية "جميع الأوصاف المحمودة، إذ وصف المؤمنون فيها بجميع العبادات، لأن العبادات كلها نوعان: بدنية ومالية؛ والبدنية قسمان: عبادة الباطن، وعبادة الظاهر؛ والمالية أيضا قسمان: ما يشترك فيه المال والبدن، كالحج والجهاد، وما

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٢.

(٢) البحر المحيط ١٦٥/١.

(٣) وهو: أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه. ينظر: الصناعتين ٣٤١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينفرد به المال كالزكاة، وصدقة التطوع على اختلاف أصنافها، فقوله تعالى: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ إشارة إلى عبادة الباطن، لأن الإيمان التصديق، وهو من أعمال القلب، وقوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ تصريح بعبادة الظاهر، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ إشارة إلى العبادة المالية، فاستوعبت جميع الأقسام على الترتيب، حيث قدّم عبادة الباطن على عبادة الظاهر، وعبادة البدن على عبادة المال"[(١)].

وقد تكون الغاية من ترتيب هذه النعوت الثلاثة على هذا النحو أنها جاءت "على حسب الإلزام، فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائمًا، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات، والنفقة لازمة في بعض الأوقات، وهذا من باب تقديم الأهم فالأهم"[(٢)].

وهذا التناسب في المعنى بين الجمل الثلاث اقتضى الوصل بينها، فإن الجملتين اللتين تلته في قوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ جاءتا على نحو يحدّد علاقة المتقين بهذين العالمين.

نعم، هذا التناسب الشديد بين الجمل الثلاث اقتضى الوصل بينها، علاوة على كونها جملًا خبرية لفظًا ومعنى، وقد توافر فيها ما أسماه القزويني (محسنات الوصل)، حيث تناسبت الجمل الثلاث في الفعلية، وفي كون أفعالها جميعًا أفعالًا مضارعة (يؤمنون، يقيمون، ينفقون) [(٣)].

فضلا عن أن تلك الجمل الثلاث (يؤمنون بالغيب) و (يقيمون

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٢٨١/١.

(٢) ينظر: البحر المحيط ١٦٥/١ بتصرف يسير.

(٣) يقول القزويني في الإيضاح "ومن محسنات الوصل تناسب الجملتين في الإسمية والفعلية وفي المضي والمضارعة، إلا لمانع كما إذا أريد بإحداهما التجدد وبالأخرى الثبوت" - الإيضاح ٢٦٦/١.

الصلاة) و (مما رزقناهم ينفقون) جمل فعليّة، أفعالها مضارعة جاءت على صيغة (يفعل) لتدل على أن الفعل لا يرتبط بزمن خاص، فقد عُبّر بهذه الصيغة في مقام وصف المتقين، لأن هذه الصفات هي أخلاق مركوزة فيهم لا تتغير بل تتجدّد وتحدث حدوثًا يعم جميع الأزمنة[١]، يقول أبو حيّان: "وجعل صلات (الذين) أفعالًا مضارعة، ولم يجعل الموصول (أل) ليصله باسم الفاعل، لأن المضارع - فيما ذكر البيانيّون - مشعر بالتجدّد والحدوث، بخلاف اسم الفاعل لأنه عندهم مشعر بالثبوت"[٢].

وتتابع الآيات بيان صفات المتقين بقوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾، يقول أبو حيان: "وإعادة الموصول بحرف العطف يحتمل المغايرة في الذات وهو الأصل، فيحتمل أن يراد مؤمنوا أهل الكتاب لإيمانهم بكل ما أوحي... ويحتمل المغايرة في الوصف، فتكون الواو للجمع بين الصفات ولا تغاير في الذوات[٣]، فالآية فيها إطناب بذكر الخاص بعد العام[٤].

والغرض من تكرار الاسم الموصول هو التنويه بعظم هذه الصفات - على وجه الخصوص - من جهة، والتأكيد على نسبتها للمتقين، من جهة ثانية، قال أبو السعود: "ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين، ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات، بل لاختلاف الصفات... للإيذان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من

---

(١) الزمن في القرآن الكريم ١١١.

(٢) البحر المحيط ١/١٦٥.

(٣) المصدر السابق ١/١٢٦.

(٤) الإطناب هو: أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارات متعارف الأوساط، سواء كانت الكثرة راجعة إلى الجمل، أو إلى غير الجمل، مفتاح العلوم ٣٠١، كذا: الطراز ٣/١٧٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمور الغائبة، والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لأحكام جمّة، حقيق بأن يُفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل أحدهما تتمّة للآخر". (١)

وهذا الرأي هو الأظهر – والله أعلم – إذ الآيات جاءت لتعداد مناقب المتقين الذين تقدّم اختصاصهم بهداية القرآن الكريم، وقصدت بهذا التعداد توضيح وبيان سبب الاختصاص، فبالغت في مدحهم والثناء عليهم لترفعهم إلى منزلة يستحقون معها أن ينالوا الهداية العظيمة التي لا يبلغ مداها، وكان من المناسب في مثل هذا المقام ألا يختصّ فئة منهم دون أخرى بمزيد من المدح والثناء، لأن الجميع متساوون في الإيمان بما أشير إليه في الآيتين، ثم إن اختصاص من آمن بالرسول – ﷺ – من أهل الكتاب يفوت على الفئة الأولى الارتقاء بها من درجة الإيمان إلى درجة اليقين للدلالة على تمكّن الإيمان ورسوخه في نفوسهم، فالموقن أعلى درجة من المؤمن، والقول باختصاص من آمن من أهل الكتاب يقتضي كونهم أكثر تحقيقاً لمعنى الإيمان وأعلى منزلة عند ربهم، وهذا المعنى ليس هو المراد، فالأفضليّة تتحقق بتحقق قيمة التقوى، والإيمان بالغيب أساسها الذي لا قيام لها بدونه، ولذلك خُصّ بالذكر مرة على سبيل الإجمال، ومرة على سبيل التفصيل تأكيدًا لأهميته.

وفي سمت المتقين وخُلُقهم نلمس قيمة الشعور بوحدة المصدر الذي تصدر عنه الديانات السماوية كلها، ولذا يجيء التعبير القرآني معبرًا أبلغ تعبير عن حقيقة هذا الشعور لدى المتقين، فلا يخالف بين القرآن والكتب السماوية الأخرى في الفعل المعبّر عن مصدرها، وهو الفعل (أنزل)، على

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٢/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرغم مما بين القرآن وبينها من اختلاف في كيفية النزول، وفي تحققه بمجمله وقت نزول هذه الآيات، فالمعروف أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، بل جاء مُنجّمًا على فترات حسب ما تقتضيه الحوادث، وتتطلبه الأحوال(١)، ولم يكن قد اكتمل نزوله آنذاك، إلا أن الآية عبّرت عنه بالماضي للمشاكلة(٢)، " لوقوع غير المتحقق في صحبة المتحقّق"(٣)، ولأن بعضه قد نزل وبعضه منتظر نزوله، فعبّر عنه بالماضي للدلالة على تحقّق النزول(٤).

وحذف المسند إليه ببناء الفعلين (أُنزل) للمفعول إشعارًا بتعيّنه، وإيذانًا بأنه لا يخفى على أحد تعظيمًا له(٥).

وقد تآزر تقديم الجار والمجرور ﴿وبالآخرة﴾ مع التعبير بالفعل (يوقنون) في الإشارة لمدى عنايتهم واهتمامهم بالمقدّم (الآخرة) ؛ " إظهارًا لكمال المدح وإبداءً لغاية الثناء"(٦).

وقد جاء التعبير بـ (يوقنون) من حيث كونه أعمق في دلالته من (يؤمنون) ليتناسب مع كثرة غرائب متعلقات الآخرة، وما أعدّ فيها من الثواب والعقاب السرمديّين، وتفصيل أنواع التنعيم والتعذيب، ونشأة أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية، ورؤية الله - تعالى -، فالآخرة أغرب

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، ٥١٧/١.
(٢) المشاكلة فن بديعي يعني " ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا" الإيضاح ٤٩٣/٢.
(٣) روح المعاني ١٢٤/١.
(٤) فتح القدير ٢٧/١.
(٥) ...

في الإيمان بالغيب من الكتاب المنزّل إلى الرسول - ﷺ - ولذلك خصص بلفظ الإيقان، ولأن المُنزّل إلى الرسـول - ﷺ - مشـاهد أو كالمشاهد، والآخرة غيب صرف، فناسب تعليق اليقين بما كان غيبًا صرفًا[١].

ومن جماليّات التعبير في هذه الآية أنها جعلت نعتهم باليقين بالآخرة آخر النعوت التي امتدحوا بها، فهو الآخر موقعًا كما أن الآخرة هي الآخر زمنًا.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى مـن ربهـم وأولئـك هم المفلحون﴾ ليثبت للمتقين أسمى درجات العلوّ والرفعة بالإشارة إليهم باسم الإشارة (أولئك)، فالمعروف في أسماء الإشارة أنها لا تكون إلا لمحسوس مشاهد، فإن خرجت عن ذلك بأن تعلّقـت بمـا لا يُـدرك بالإحسـاس أو بمحسوس غير مشاهد "فلتصييره كالمشاهد، وتنزيل الإشارة العقلية منزلـة الحسيّة"[٢]، فقد ساقت لهم الآيات السابقة من وسائل التعريف ما جعلهم في منزلة المشاهد الحاضر في الذهن الماثل للعيان، المعرّف أكمل تعريف وأتم تمييز، فما من طريق أدعى لتجسيد الشيء وتمثيله للعيان من الوصف، ولا سيّما إذا جمعت للموصوف عددًا من الأوصـاف الجليلـة، وكانـت هـذه الأوصاف هي العلّة في ثبوت الحكم المسوق بعد الإشارة لهم، ولذا أنزلتهم الآية منزلة الحاضر المشاهد، ففي استحضارهم مزيد من التأكيد على تحقق هذا الحكم لهم، وعلى الارتباط بينه وبين ما تقدم من صفات [٣].

وقد أشار إليهم هنا باسم الإشارة الدال على البعد، للتعظيم والإشعار

---

(١) البحر المحيط ١٦٧/١.

(٢) المطول ٧٧.

(٣) ...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلوّ المنزلة ورفعة القدر، وجاءت هذه الإشارة المشعرة بالعلو والرفعة مناسبة لما تقدمها من إشارة إلى الكتاب الكامل بإعجازه وهديه في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، فقد أشار له بـ (ذلك) الدال على البعد – أيضا – قصدًا لتعظيمه، "وذهابًا إلى بعده درجة"(١). فكان من قمّة السحر البلاغي أن يناسب بين الإشارتين، لأن رفعة الكتاب المعجز وعلوّ قدره تستتبع بالضرورة رفعة السائرين على نهجه، والمهتدين بهديه، وعلوّ منزلتهم.

وجملة ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال(٢) " كأنه قيل: ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى؟ فأجيب: بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا – دون الناس – بالهدى عاجلًا، وبالفلاح آجلا "(٣).

وقد جاء الاستئناف هنا باسم الإشارة، ولم يجئ بإعادة اسم المستأنف الحديث عنه أو ذكر ضميره بأن يقال: (المتقون على هدى، أو هم على هدى)، لأن استئناف الحديث بإعادة صفة المتحدَّث عنه أبلغ من إعادة اسمه؛

" لما فيه من بيان الموجب للحكم، وإيراد اسم الإشارة هنا بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة مع ما فيه من الإشعار بكمال تميّزه بها وانتظامه لذاك في سلك الأمور المشاهدة مع الإيماء إلى بعد منزلته وعلوّ درجته"(٤).

---

(١) مفتاح العلوم ٢٧٨.

(٢) سبق بيانه، ينظر ص١٦ من هذا البحث.

(٣) الكشاف ٨٤/١.

(٤) روح المعاني ١٢٦/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد جمعت هذه الآيات للمتقين بين نوعي الهدى - (هدى للمتقين)، و(أولئك على هدى من ربهم) - مبالغة في تشريفهم وتكريمهم، فإنهم لما قبلوا هداية القرآن، واتخذوه دليلًا ومرشدًا، امتنّ الله عليهم بأن زادهم نورًا وبصيرة، وتوفيقًا وسدادًا، وأبعد عنهم وساوس الشيطان، وجنّبهم اتباع خطواته التي تقود إلى الزيغ والضلال.

ولما جمع لهم أسباب الهداية، وأثبت لهم أسمى وأرقى معانيها، جاءت الصورة البيانية في قوله: ﴿على هدى من ربهم﴾ لتبرز وتجسّد تمام تمكنهم من الهدى، ولا خلاف في كون التعبير هنا جاء بطريق المجاز، وأن المجاز مبني على الاستعارة، ولكن الخلاف ناشئ حول نوع الاستعارة؛ فقد دار خلاف طويل بين البلاغيين حول نوع الاستعارة في قوله: ﴿على هدى﴾ فمنهم من ذهب إلى كونها تمثيلية، ومنهم من ذهب إلى كونها تبعيّة، وقال بعضهم إنها تبعيّة تمثيلًا، ورجّح بعضهم كونها مكنيّة[1].

وأرجح الأقوال كونها استعارة تمثيلية، على تشبيه هيئة المتقين في تمسكهم بالهدى وثباتهم عليه، وظهورهم وتميّزهم وعلوّ قدرهم ومكانتهم الناشئة عن تمكنهم منه بهيئة الراكب المعتلي على ظهر مركوبه، الثابت عليه، الممتلك لزمام أمره يصرّفه كيف يشاء، وظهوره لكونه راكبًا، فشبّه تلك الهيئة المنتزعة من متعدّد بهذه الهيئة المنتزعة أيضا من متعدّد، ولم يذكر من أجزاء الهيئة المشبّه بها إلا كلمة (على) ؛ " لأنها لقوة دلالتها وخصوصيتها في التركيب استطاعت أن تشير إشارة واضحة إلى باقي

---

(١) للاستزادة حول هذا الخلاف ينظر: التحرير والتنوير ١/٢٤٢، كذا: المطول، وحاشية السيد الشريف عليه ص٣٩٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصورة، وتبعثها واضحة في النفس والخيال"[١].

وقد رجّح ابن عاشور كونها تمثيلية ؛ لوضوح التشـبيه التمثيلـي، وبعده عن التكلّف، وكونه أبلغ وأولى بالاعتبار، لما فيه من خصوصـيّات أقوى وأعز-[٢].

وذهابًا إلى أبعد درجات التعظيم والتشريف للهدى المنسوب للمتقين يأتي هذا الهدى مخصّصًا بكونه ﴿من ربهم﴾، وفي نسـبة الهـدى إليـه - سبحانه وتعالى- تتميم[٣]، أريد به زيادة المبالغة في الإيحاء بتمكـنهم مـن الهداية، فإنه لما كان - سبحانه وتعالى - هو مُمدّهم بالهداية، وهو معينهم وموفّـــقهم للثبات عليها أشعر ذلك بزيادة تمكّنهم من الهدى، واستمرارهم عليه.

وقد كان من تمام البلاغة وسموّ البيان أن يفتتح الآيات الواردة في وصـف المتقين بالحديث عن الهداية التي اختصّ بها المتقون ﴿هدى للمتقـين﴾ وأن يختتمها بالحديث عن هدايتهم - أيضًا - ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ مـع ما بين الهدايتين من فرق في المعنى، فافتتح بالسبب واختتم بالمسبب، لأن الهداية الأولى هي سبب حصول الثانية، فمن يتخذ القرآن دليلًا ومرشدًا لابدّ أن يحظى بتوفيق الله - سبحانه وتعالى - وسداده في حياته كلها.

واستكمالًا لمعنى العلوّ والرفعة الذي تجلّى للمتقين في أبهى وأجمل صورة جرّاء رسوخ أقدامهم في طريق الهدى وثباتهم عليه، أتـت جملـة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ لتثبت لهم علوًّا آخر ترتب على الأول، وهو غايـة

---

(١) التصوير البياني ٢٣٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٤/١.

(٣) التتميم من أنواع الأطناب، وهو "أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكته، كالمبالغة"، الإيضاح ٣١٣/١، كذا: البرهان ٧٠/٣، الإتقان ٢٠/٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل علوّ يطمح إليه الإنسان، لأنه مرتبط بالدار الآخرة، فالآمـال منعقدة عليه، والرغبات متوجّهة إليه.

وقد تكرّر ذكر المسند إليه (أولئك) في قوله: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾؛ لأن تكراره يفيد التقـرير والإيضاح، وينبه "على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح، فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تمييزهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها "[١].

كما أن في اختصاص كل واحدة من هاتين الأثرتين بزمن خاص مدعاة لإفرادها بجملة مستقلة[٢]، فالتمكّن من الهدى هو وصف لحالهم في الدنيا، والظفر بالفلاح هو وصف لحالهم في الآخرة، وقـد أدى اختلاف الزمنين إلى اختلاف الأسلوب الذي عبّرت به الجملتان عن حيازتهم لتلك الأثرتين.

وجيء بالمسند إليه (المفلحون) معرّفا باللام التي للجـنس؛ لإفادة قصر جنس معنى الفلاح عليهم دون غيرهم.

ولإفادة تقوية الحكم باختصاص المتقين بالفلاح دون غيـرهم أتى بضمير الفصل (هم) في قوله: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ لتأكيد ذلك المعنى تعريضًا بأهل الكتاب الذين يظنون أنهم قد أصابوا بما هـم عليـه طريق الفلاح، وأنه مقصور عليهم بإدعائهم كما جاء على لسانهم في قوله تعالى ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا

[illegible] (1) [illegible]

وهكذا اقترنت الآية المتقين بالهدى في الدنيا والفلاح في الآخرة بأبلغ أسلوب وأقوى طريق لإثبات الحكم وتأكيده، وخاصة عندما يتعلق الحكم بالزمن الأخروي، فقد ساوى بين الزمنين في التعبير عنهما بالجملة الإسمية التي يعدّ التعبير بها أحد طرق التوكيد، فهي آكد من الفعلية في تقوية الحكم وإثباته، وزاد على جملة الزمن الأخروي ضمير الفصل (هم) كأداة تأكيد، لكونها متعلّقة بالزمن المستقبل، فهو محلّ إنكار وجدل شديدين بخلاف الزمن الدنيوي الذي يمثّل الحاضر المعاش.

وقد وصل بين الجملتين في قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ ؛لاتفاق الجملتين خبرًا لفظًا ومعنى، ولما بينهما من تغاير ناشئ من اختلاف المفهوم الذي تحمله كل منهما، واختلاف الزمن المتعلقين به، والجامع بينهما هو كون الثانية مسببة عن الأولى، فالسبب في حصول الفلاح الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ هو حصول الهدى الذي أشارت إليه جملة ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾.

وبهذا تكون الآية قد أقرّت للمتقين بنيل العزّ والعلوّ والرفعة منزلة وقدراً، وانتهجت في ذلك أسلوبًا بليغًا تجلّي في الإشارة إليهم باسم الإشارة الدال على البعد (أولئك)، و التعبير بـ ﴿على هدى﴾، وبالوصف المعرّف بأل الجنسية (المفلحون)، وبضمير الفصل (هم) الدال على التأكيد، كل هذه الأساليب جعلتنا نشعر أننا نتعامل مع فئة مميّزة، فئة جديرة بسعادة الدارين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفوز بالأثرين، الهدى في الدنيا، والفلاح في الآخرة.

وبعد أن طافت بنا الآيات في حياة المتقين الدنيوية ومآلهم في الآخرة كان من المناسب أن تأتي آية الختام دالة على تمام الثبات والتمكن، ودوام البقاء في النعيم الأبدي، لتدخل هذه البشارة والسرور والاطمئنان إلى نفوسهم، يقول العلوي اليمني عن ضرورة الاهتمام بخاتمة الكلام، والاعتناء بإظهارها في أبهى وأبلغ أسلوب: "فينبغي لكل بليغ أن يختتم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتم، فإنها آخر ما يبقى على الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، فلا جرم إن وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها، وقوتها وجزالتها، وينبغي تضمينها معنى تامًا يؤذن السامع أنه الغاية والمقصد والنهاية"[1].

وأينما قلّبنا نظرنا في الآيات الثلاث لمحنا بلاغة الإيجاز تلوح لنا مؤكدة قدرة البلاغة القرآنية المعجزة على جمع المعاني العظيمة ذات الفوائد الجليلة التي تؤلَّف في شرحها الكتب الطوال في ألفاظ جليلة تؤدي المعنى المطلوب، وتزيد عليه بفيض من الإيحاءات التي تجعله أمكن في النفس، وأكثر رسوخًا بالذهن، فقد اشتملت الآيات على الإيجاز بنوعيه: إيجاز القصر وإيجاز الحذف[2]، فأما إيجاز القصر فليس بوسعنا أن نقف عند كل دلالاته، لأن الآيات بمجملها مبنيّة عليه رغم طولها النسبي، إلا أن

---

(١) الطراز ٣/١٠٤.

(٢) الإيجاز يعني: اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، وهو نوعان: إيجاز الحذف وهو: التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة أقل منها، بحذف شيء من التركيب مع عدم الإخلال بالمعنى، وإيجاز القصر وهو: تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف، ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ٢٤٨-٢٥٤، التلخيص، ١١٩، الصناعتين ١٧٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل واحدة من الجمل التي اشتملت عليه جاءت على نحو موجز، فالفاظها
اليسيرة تؤدي معانٍ غزيرة ببلاغة متناهية دون نقص أو إخلال بالمعنى.

أما إيجاز الحذف؛ فقد جاء في عدة مواضع حددها أبو حيّان في
قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: ينفقون في الطاعة، وفي قوله:
﴿بما أنزل إليك﴾ أي: من القرآن، و ﴿وما أنزل من قبلك﴾ أي: قبل
إرسالك، و ﴿بالآخرة﴾ أي: بجزاء الآخرة، أو بالدار الآخرة، و ﴿يوقنون﴾
يعني: يوقنون بالمصير إليه، و ﴿على هدى﴾ أي: على أسباب هدى[1].
وبتقديرنا للمحذوف ندرك مدى بلاغة القرآن الكريم في الاستغناء عن هذه
الألفاظ لدلالة السياق عليها، ولعدم تعلّق ذكرها بفائدة تضاف للمعنى،
بل يكون في ذكرها حشو وتطويل لا طائل من ورائه.

وإذا تأملنا الآيات نجد أنها افتُتحت بإشارة ﴿ذلك الكتب﴾، واختُتمت
بإشارة ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾، وكلتا الإشارتين دلّت على بُعد
المنزلة ورفعة القدر، وهذا من التناسب الذي لا تجد له نظيرًا إلا في هذا
الكتاب المعجز، وقد اشتملت كلتا الآيتين ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين﴾ و﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ على جمل
اسمية، فلم ترد فيها أي جملة فعلية، أما الآيتان الواقعتان بينهما ﴿الذين
يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما
أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ فجاءتا على العكس
بغلبة الجمل الفعلية عليها، لأن الفعل هو أبرز ما يميز المتقين، فهم
يواصلون العمل منطلقين من حقيقتين ثابتتين، وقاعدتين راسختين في
نفوسهم، تمثّل الأولى البداية التي ينطلقون منها، وتمثّل الثانية النهاية

---

(١) البحر المحيط ١/١٧٠.

التي يطمحون إليها ويسعون للظفر بها، وقد عبّر عن الحقيقة الأ... ى في البداية بقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾. و عبّـر عن الثانية في الختـام بقولـه تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾، وجعل ما بينهما مبيّـنا للعمل الدال على تحقق الإيمان بهما ورسوخه في نفوس المتقـين، فجاء ترتيب المعاني في الكلام موافقا لترتيبها في الحقيقة.

وكما عبّرت الآيات بألفاظها، وجملها، وتراكيبها عـن ثقـة هـذه النفوس الزكيّـة بالله تعالى واطمئنانهم إلى ما وعدهم به، عبّـرت عن هذا الهدوء النفسي والسكينة والطمأنينة التي يعيشها المتقون بموسيقاها - أيضًا - فجاءت موسيقى الألفاظ هادئة سلسلة رقيقة، وابتعدت عن الألفـاظ ذات الجرس القويّ الرنّان، وكان ذلك نتيجة لتردّد حروف المدّ والميم والنـون واللام خلالها بكثرة، فقد بنيت فواصلها على حرفي (الواو والنون)، فأوحى كل ذلك بمشاعر الهدوء والطمأنينة التي تغلغلت في أعماق المتقين كنتيجة لتبيّـــنهم الحق وثباتهم عليه.

فحروف (الميم واللام والنون) وحروف المدّ تتميّز بسهولة وعذوبة في النطق، وتحمل إيقاعًا محببًا للنفس لا نجده في غيرها مـن الحـروف، يقول الزركشي " قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصـلة بحروف المد واللين، وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكّن مـن التطريـب بذلك"(١).

وثمّة خاصيّة صوتيّة تجمع بين حروف المد واللين وبـين النـون واللام والميم، فهي تتفـوّق على سائر الحروف في طول الصوت، وفـي درجة الوضوح السمعي، فحروف اللين تأتي في المرتبة الأولى من حيث

---

(١) البرهان ٦٨/١.

درجة الوضوح السمعي، يليها من الحروف: الميم واللام والنون، فقد لاحظ العلماء أنها تتميّز بنسبة عالية من الوضوح السمعي، مما دفعهم إلى تسميتها بأشباه حروف اللين[١].

ولعل هاتين الصفتين اللتين تتميّز بهما هذه الحـروف كانتـا وراء ورودها في فواصل الآي، فالحرف الأطول صوتًا والأوضح سمعًا يجعـل الكلام أكثر تعلـقًا بالنفس، وأقوى تمكنًا وأبقى أثرًا، فختمت بهـا الآيـات لتحقيق هذا الغرض.

وإذا كانت افتتاحية الحديث يجب أن يراعى في صياغتها ما يلفت الانتباه ويثير الاهتمام لمتابعة الحديث والإنصات إليه، فإن الخواتيم أيضـا يجب أن يراعى فيها ما يمكّن للكلام في نفس المستمع، حتى إذا انصـرف كان الكلام عالقًا بذهنه، وكأنه ما زال يتردّد على سمعه.

وقد بلغ القرآن الكريم في كلا الجانبين القمة العليا، والمنزلـة الأسـمى التي لا يطمع أحد في الوصول إليها، ومهما حاولنا أن نحصي دلائل الإعجـاز التي يشتمل على كنوز فياضة منها فإننا لا نستطيع أن نبلغ إلا قدرًا يسيرًا منها، ومع ذلك نجد أنفسنا مبهورين أمام رفعة بيانه، وسمو بلاغته.

- الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكـن البرّ من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال علـى حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقـام الصلوة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصـابرين فـي البأسـاء

(١) الأصوات اللغوية ...

والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾(١).

جاءت هذه الآيات لتبين الحكمة من أحكام الدين وتشريعاته، واتخذت من حادثة تحويل القبلة مثلا تثبت من خلاله أن الدين ليس مظاهر خارجية وحركات ظاهرية، بل غايات عظيمة وأهداف سامية لا تتحقق إلا بما تحمله القلوب من إيمان صادق بالله – جلّ وعلا – ويتجلّى في سرعة الامتثال لأوامره، "وليس في لزوم التوجّه إلى جهة من المشرق أو المغرب برّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه"(٢)، ولذلك نفى أن يكون البرّ متحققًا بذلك، ووجّههم إلى المفهوم الحقيقي للبرّ كما بينته الآية.

فالبرّ هو " اسم جامع لأعمال الخير"(٣) يكون بالإخلاص لله في المعتقد والعمل، ويتحقّق بتحقق الإيمان بكافة أركانه، بالله وملائكته والكتاب والنبيين، وتتجلّى ثمرة الإيمان الصادق بالعمل الدال على أسمى ورفع درجاته، وذلك بتقديم محبّة الله وطلب رضاه على أهواء النفس ورغباتها بإيتاء المال رغم حبه والرغبة الشديدة فيه، ودفعه للفئات المستحقة في المجتمع، وهم: ذوي القربى الذين تربطهم بالإنسان رابطة نسب من قريب أو بعيد، واليتامى وهم "الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب"(٤)، والمساكين" وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم"(٥)، وابن السبيل

---

(١) البقرة ١٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/١٩٤.

(٣) التفسير الكبير ٣/٤٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/١٩٤.

(٥) السابق ...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي: "المسافر المنقطع"(1)، والسائلين "الذين يتعرضون للطلب"(2)، وفي الرقاب أي: "في معاونة المكاتبين حتى يفكّوا رقابهم"(3).

ولا يتحقق البرّ إلا بإقامة الصلاة بأدائها مكتملة الشروط والواجبات والأركان، واستشعار التوجّه القلبي لله بها قبل التوجّـه الشكلي بصرف الوجه تلقاء المشرق أو المغرب، وإيتاء الزكاة التي يجب أن يدرك المسلم أن الغاية منها سد حاجة المعوزين في المجتمع، فيوجّه جلّ عنايته واهتمامه لتلك الغاية العظيمة.

وتختم الآية الصفات المحققة للبرّ بما يدل على ضرورة تهذيب النفس وأخذها بالخلق القويم والطبع السليم، وذلك بالتخلّق بصفتي الوفاء بالعهد والصبر على كافة المصائب والبلايا وعلى أشدها وقعًا وأكثرها إيلامًا، فالمؤمن الحق يجب أن يتحلّى بالصّبر في (البأساء) أي: الجوع أو الفاقة والفقر، و(الضرّاء) أي: المرض، و(حين البأس) أي: وقت شدة القتال(4).

وبتحقّق هذه الأمور مجتمعة يستكمل الإنسان معاني البرّ، فهو مقصور على الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوه بالقول والفعل، وأولئك هم المتقون لأنهم لم يفعلوا ما فعلوا إلا استشعارًا لعظمة المولى – جلّ وعلا – وطلبًا لدفع عذابه وسخطه عنهم.

وفي مناسبة هذه الآية للسياق يقول أبو حيّان: "ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ لأنها إن كانت في أهل الكتاب فقد جرى ذكرهم بأقبح الذكر من

---

(1) الكشاف ٢٤٤/١.

(2) تفسير القرآن العظيم ١٩٥/١.

(3) الكشاف ٢٤٥/١.

(4) تفسير القرآن العظيم ١٩٥/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتمانهم ما أنزل الله واشترائهم به ثمنًا قليلا وذكر ما أعدّ لهم، ولم يبق لهم مما يظهرون به شعائر دينهم إلا صلاتهم، وزعمهم أن ذلك البرّ فردّ عليهم بهذه الآية، وإن كانت في المؤمنين فهو نَهْيٌ لهم أن يتعلقوا من شريعتهم بأيسر شيء كما تعلّق أهل الكتابين، ولكن عليهم العمل بجميع ما في طاقتهم من تكاليف الشريعة على ما بينها الله تعالى"(١).

والمتأمل لموقع الآية من السورة يدرك أن المعنى الثاني هو المراد، فهي تكاد تمثل حدًا فاصلًا بين محوري السورة الرئيسين اللذين يتمثلان في الحديث عن أهل الكتاب الذي استغرق ما يزيد على ثلث السورة بيّن خلاله ما ارتكبوه من أفعال عظيمة أدّت إلى فساد عقيدتهم، ثم الحديث عن الجانب التشريعي الذي تحولت السورة إليه عقب هذه الآية مباشرة، فأتى الثناء على المتقين مناسبا في موقعه من السياق للربط بين هذين المحورين، فخُلُق التقوى الذي أكّدت السورة تجسُّده في أبناء هذه الأمة الجديدة في مستهلها عاودت الإشارة إليه؛ لتبيّن أن ما وقع فيه أهل الكتاب من مزالق كان سببه افتقار نفوسهم إلى تقوى الله تعالى، ولأن تقوى الله تعني القيام بالتكاليف الشرعية وامتثال أوامر الله – سبحانه وتعالى – واجتناب نواهيه، وتحمّل مشقة مغالبة أهواء النفس ورغباتها، فجاء التأكيد على فضلها وسموّ منزلة المتصفين بها؛ لمناسبة ذلك لما سيتلى بعدها من أحكام وتشريعات جديدة لا يقوم بها حقّ القيام إلا من كانت تقوى الله هي الدافع الذي يحثّه على مراقبة الله – سبحانه وتعالى – في السرّ والعلن.

هذه الآية الكريمة – منذ بدايتها – تضعنا أمام مفهومين متغايرين وتصوّرين مختلفين لأمر في غاية الأهمية هو (البرّ)، فإذا كانت الآيات

(١) البحر المحيط ٤/٢.

السابقة في بيان صفات المتقين[1] قد جاءت لترسّخ مفهوم التقوى في نفوس المؤمنين بأسلوب تربوي راق فإن هذه الآية جاءت لتصحّح ما لحق مفهوم البرّ من انحراف.

وعند البحث عن معنى كلمة (البرّ) نجد أن لها عدّة معان، فـالبرّ - كما قيل - هو "اسم للخير، ولكل فعل مرضي"[2]، ويجيء بمعنى: الإجلال والإعظام، يقال: "برّ والده: أجلّه وأعظمه... وبرّت يمينه وبرّ حجّه: أجلّها"[3]، والبرّ: الصدق والطاعة[4]، وقيل: البرّ: الصلاح[5]، وجاء في المفردات: "البرّ خلاف البحر، وتُصوّر منه التوسّع فاشتق منه البرّ أي: التوسّع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو ﴿ إنه هو البرّ الرحيم ﴾ وإلى العبد تارة، فيقال: برّ العبد ربه، أي: توسّع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة"[6].

فكل ما يتوصّل به العبد إلى رضا الله ويتقرّب به إليه فهو برّ، فالإحسان إذا أريد به التوصّل والتقرّب إلى المحسن إليه يطلق عليه برّاً، ولذلك يقال للإحسان في التعامل مع الوالدين أو غيرهم من الناس برّ، ولا يطلق البرّ على الإحسان في معاملة الحيوان، لأنه ليس من باب التقرّب والرغبة في تقوية الصلة، بل من باب الرأفة والرحمة به.

ولعل ارتباط البرّ بمفاهيم خاطئة كان وراء مجيئه في القرآن - في

---

(١) البقرة ٣-٥.

(٢) الكشاف ١/٢٤٢.

(٣) البحر المحيط ١/٣٣٧.

(٤) لسان العرب، مادة (برر).

(٥) السابق نفسه.

(٦) مفردات غريب القرآن، مادة (برر).

أغلب المواضع – مرتبطًا بسياق النفي الذي يعقبه إثبات، ويأتي النفي في تلك المواضع مباغتًا متصدرًا الآية دون تمهيد أو إشـارة إلـى تخصيص المعنيّ بهذا الخطاب، مما يدل على كون الاهتمام منصبًا علـى تصحيح المفهوم بنفي الباطل وإحقاق الحق، لأن مثل هذه المفاهيم التي تـنسب إلى الدين وهي بعيدة عنه أو منصبّة على المظهر دون الجوهر هي أشد خطرًا من تلك المفاهيم المعلوم زيفها وبطلانها، ولذلك جاء النفي متصدّرًا الآيـة مشعرًا بأهمية الالتفات إلى مثل هذه المفاهيم الهشة الضعيفة التـي يتعلّق بعض الناس بها وهي لا تمتّ للبّر بصلة.

لذلك جاءت الآية لتقرّر حقيقة البرّ بأسلوب القصر[١] الذي يفيد التأكيـد حينما يكون الحكم عند المخاطب "مشوبًا بصواب أو خطأ، وأنت تريد تقرير صوابه ونفي خطئه"[٢].

وقد استعمل هنا أقوى طرق القصر على الإطلاق وهـي طريـق العطف؛ لأنه يُصرّح فيه بالطرف المثبت والطرف المنفي، فيضع الحقيقـة كاملة أمام المخاطب بعدما يكون قد نفى ما جعل أمرها ملتبسـاً عليـه أو مشكوكًا فيه، هذا على خلاف طرق القصر الأخرى التي لا يُصرّح فيها إلا بالطرف المثبت أما الطرف المنفي فيكون مفهومًا ضمن الكلام، والتصريح بالطرف المنفي في هذه الآية كان على درجة كبيرة من الأهمية، لأنه يحيل – من جهة – إلى حادثة كانت من أكبر المداخل التي اتخذها اليهود للطعن في الدين الإسلامي والتشكيك فيه، و – من جهة أخرى – إلى قضيّة فـي

---

(١) القصر " لغة: الحبس، وفي الإصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق معهـود" ينظـر: المطول ٢٠٤، الإيضاح ٢١٣/١.

(٢) مفتاح العلوم ٢٩٣.

دون الأهداف، وهو التركيز على مظاهر الدين والتشبث بها [illegible] إلى حقيقة ما ترتبط به من أهداف وغايات سامية [illegible] الأولى بالرعاية والاهتمام.

وقد جاء النفي هنا دالًا على الاستغراق والعموم، لأن (ليس) "لنفي العام المستغرق المراد به الجنس"(١)، واستفيد هذا المعنى – أيضًا – من تعريف المسند إليه (البرّ) بأل الجنسية، فالتعريف لا يُراد به إفادة نفي أن يكون البرّ مقتصرًا على التوجّه جهة المشرق أو المغرب، بل أراد أن ينفي اتصال البرّ بذلك العمل مطلقًا، لأن البرّ يتحقق بالإيمان الصادق والعمل الصالح، والطاعة التامة الكاملة لله – سبحانه وتعالى – بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والقيام بأعباء التكاليف الشرعية، وما عدا ذلك فهو تبع له ومترتب عليه(٢).

وقد جاء المجاز المرسل(٣) في كلمة (وجوهكم) ليوحي بأن التوجّه المنفيّ البرّ عنه إنما هو التوجّه الشكلي الظاهري، ولذلك عبّر بالجزء (الوجه) وأراد الكل، فالإنسان لا يستقبل القبلة بوجهه بل بسائر بدنه. وخصّ المشرق والمغرب بنفي البرّ عن التوجه إليهما، لأن الناس قد انشغلوا بأمرهما وذهبوا في التعلق بهما كل مذهب، وعظّموهما تعظيمًا لا يراد لهما بذاتيهما، ولذلك جاءت في سياق النفي للفت الانتباه إلى أنها مجرّد

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ٢/٢٩٩.

(٢) روح المعاني ٢/٤٥.

(٣) المجاز المرسل هو: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة بين المعنيين – وله علاقات عديدة منها (الجزئية)، وهي: أن يذكر الجزء ويراد الكل. ينظر: علم البيان – د/ بسيوني فيود ١٣٤، الإيضاح ٢/٣٩٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جهات لا يتعلق التوجه لها بشيء من البر[١]، وخصّصنا بالذكر (المشرق) قبلة النصارى، و (المغرب) قبلة اليهود، ولما كان المط... موجهًا لهما خُصّت قبلتيهما بالذكر، لكونهما منسوختين بالأمر بالتوجه ... البيت الحرام[٢].

وإما أن يكون الخطاب عامًا، وتخصيص (المشرق والمغرب) ... اقتصار على أشهر الجهات"[٣]، وقدّم المشرق على المغرب مراعاة الترتيب، فالشروق متقدم على الغروب[٤]، ويبدو أن هذا الرأي هو الأرجح والأبلغ؛ لأن الآية لم تُرِد نفي البرّ عن القبلتين اللتين يتوجّه إليهما اليهود والنصارى، وإن كان هذا حاصلاً تبعا للمعنى المراد، بل أرادت عموم النفي، أي أن البرّ لا يتعلق بالتوجّه إلى أي جهة من الجهات، ولا بالتعلق بشعائر الدين ومظاهره دون أن يكون مرتبطًا بتحقيق الإيمان والتزام العمل الصالح المثمر الذي لا يقتصر نفعه على الإنسان بل يتعداه إلى المجتمع بأسره[٥]، وذلكم من السموّ البلاغيّ في القرآن الكريم، حيث استثمر دلالة (المشرق والمغرب) لارتباطهما بحادثة جزئية للإيحاء بدلالة تتجاوز تلك الحادثة وتتعلق بجوهر الدين وحقيقته، وكان من الضروري لفت انتباه المسلمين لها خاصة وأنهم في بداية عهد جديد، وفي بداية اتصال بأهل الكتاب، وهم أناس يجيدون إلباس الحق بالباطل، فنُبّهوا إلى ذلك ليعلموا أن الدين ليس بالمظاهر الشكلية.

---

(١) روح المعاني ٢/٤٥.

(٢) مدارك التنزيل ١/٨٦.

(٣) التحرير والتنوير ٢/١٢٨.

(٤) روح المعاني ٢/٤٥.

(٥) التفسير الكبير ٥/٣٣ بتصرف يسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينقلنا القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ولكن البرّ مَنْ ءامن بالله﴾ من المفهوم الخاطئ للبرّ إلى المفهوم الحقيقي الذي ينبغـي أن يوضـع بعـين الاعتبار، فيكرّر المسند إليه (البرّ) للتأكيد على نسبة ما سيأتي بعـده لـه، وعلى كونه مقصورًا عليه، وهو من باب قصر الصفة علـى الموصـوف قصرًا حقـيقـيًـا[1]، حيث قصر صفة (البرّ) على (من آمن).

ويسلك الأسلوب القرآني هنا مسلكًا بديعًا للمبالغة في نسبة البرّ لمن تحلّى بهذه الصفات، فقد أخبر عن المصدر (البرّ) باسم الـذّات (مـن)، والمعنى إما على نيّة حذف المضاف، ويكون التقدير: ولكن البرّ بـرّ مـن آمن، فحذف المضاف و أقام (مَنْ) مقامه، أو أن يكون المراد: ولكن ذا البرّ مَنْ آمن[2]، وإما أن يكون المقصود هو الإخبار باسم الذّات دون نيّـة حذف[3]، فيكون من المجاز العقلي، وهذا الوجه أبلغ؛ لأنه يصوّر لنا مـن اتصف بهذه الصفات وكأنه قد تجسم من البرّ، فأصبح لكثرة ما يأتيه مـن أعمال البرّ كأنه هو البرّ نفسه.

وإذا كان (البرّ) قد تكرر في جملتي النفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من ءامـن بالله﴾ إلا أن الخبر المسند إليه جاء في جملة الإثبات ﴿ولكن البرّ من ءامن بالله﴾ بأسلوب مختلف عنه في جملة النفي ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ فبدل أن يقال: ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق

---

(١) ينقسم القصر باعتبار طرفيه قسمين: قصر موصوف على صفة، وقصـر صـفة علـى موصوف، وباعتبار الواقع قسمين: قصر حقيقي وهو: ما طابق الواقع، وقصر إضـافي وهو: ما قصد به المبالغة، ينظر: مفتاح العلوم ٤٠٠، الإيضاح ٢١٣/١.

(٢) الكشاف ٢٤٣/١.

(٣) التحرير والتنوير ١٢٩/٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمغرب ولكن البرّ أن تؤمنوا، بالإتيان بالمصدر المؤول على غرار الجملة الأولى، استبدلت (أن) التي تدل عند دخولها على الفعل المضارع على الحدث مجردًا من أي دلالة أخرى، بـ (مَن) الموصولة، و (مَن) لا تستعمل إلا للذوات على خلاف (الذي) فهو في الأصل صفة، لأنه "اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل"[١].

ومن هنا تتجلّى لنا براعة النّظم القرآني في وضع (أن تُولّوا) في مقابل (مَنْ آمن)، فالتركيز في الجملة الأولى على الحدث لنفي اتصال البرّ به ؛ لأن اليهود جعلوه مسلكًا للطعن في مصداقيّة الرسول - ﷺ - ومصداقيّة ما جاء به، فالتركيز عليه كان لنقض الحجّة التي يستندون عليها من أساسها بنفي أن يكون البرّ متعلّقًا بها بأي حال من الأحوال، أما الجملة الثانية فكان التركيز فيها على الذّات المتلبّسة بما يحقّق البرّ ويمثّله بالفعل، فكأنه أراد أن يشير - إشارة لطيفة بعيدة عن التصريح الذي قد يوهم بالانحياز والتعصّب إلى فئة دون أخرى - إلى أن البرّ متحقّق في الرسول - ﷺ - ومن اتّبعه دون غيرهم ممن حرّفوا الكتاب عن مواضعه، وكتموا الحق وألبسوه بالباطل، فوضْعُ الذّات في مقابل الحدث يوحي باهتمام موجّه لفئة مخصوصة قد حقّقت هذا المعنى، ولذلك عبّر بالماضي (آمن، آتى، أقام) على خلاف التعبير في الجملة الأولى الذي جاء بالمضارع (أن تولّوا) لما في الماضي من دلالة على تحقق الوقوع المراد إثباته لهذه الفئة، كما أثبت لهم البرّ وبالغ فيه بجعلهم هم البرّ نفسه.

وإذا ما توقّفنا عند مقوّمات البرّ - كما حدّدتها الآية الكريمة -

---

(١) دلائل الإعجاز ١٣٨.

سنجد أنها قد قسمتها تقسيمًا بديعًا، فوزّعتها على ثلاث مجموعات، وقدّمت الأهم فالأهم، فبدأت بالإيمان وهو أساس الدين الذي لا قيام له إلا به، وهو الأصل المستتبع لجميع الفضائل"(١).

وثمّة عدة اعتبارات تجعل الترتيب الذي اتبعته الآية لأركان الإيمان في غاية السموّ البلاغيّ ومنتهى الحسن البيانيّ، فتقديم الإيمان بالله لأنه الأصل الذي يستند إلى العقل، فما من عاقل ينكر وجود الله، والإيمان به يقتضي الإيمان بالمعاد إليه في اليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله(٢). "وقدم الإيمان بالله واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل؛ لأن المكلّف له مبدأ ووسط ومنتهى، ومعرفة المبدأ والمنتهى هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأما معرفة مصالح الوسط فلا تتم إلا بالرسالة، وهي لا تتم إلا بأمور ثلاثة: الملائكة الآتين بالوحي، والموحى به وهو الكتاب، والموحى إليه وهو الرسول"(٣).

ومما يلفت النظر هنا مجيء (الكتاب) في قوله تعالى: ﴿ولكن البرّ من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ مفردًا رغم وروده في سياق جمع، فقد ورد متوسطا بين جمعين هما (الملائكة والنبيين)، فإما أن يكون المراد به جنس الكتب السماوية فيشملها جميعا(٤)؛ لأنه " الظاهر الموافق لقرينه، ولما ورد في الحديث: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)"(٥)، وإما أن يكون المراد به القرآن، وخص بالذكر " لأنه المقصود

---

(١) البحر المحيط ٥/٢.

(٢) المصدر السابق ٦/٢.

(٣) المصدر السابق ٥/٢.

(٤) ينظر: روح المعاني ٢/٤٥، إرشاد العقل السليم ١/١٩٣، التحرير والتنوير ١٢٩/٢.

بالدعوة ؛ والكامل الذي يستأهل أن يسمى كتابًا، والإيمان به إيمان بجميع الكتب لكونه مصدقًا لما بين يديه"[١].

وقد علّل ابن عاشور مجيء (الكتاب) هنا مفردًا بأن صيغة المفرد " أخف مع عدم التباس التعريف بأن يكون للعهد؛ لأن عطف النبيين على الكتاب قرينة على أن اللام للاستغراق، فأوثرت صيغة المفرد طلبًا لخفة اللفظ"[٢].

هذا من جهة اللفظ، أما من جهة المعنى فأرى – والله أعلم – أنه يعود إلى أن الكتاب يختلف عن الملائكة والنبيين في كونه ليس مخلوقا مثلهما، بل هو كلام الله – جلّ وعلا – أي صفة من صفاته، وكما أن أسماء الله – سبحانه وتعالى – لا تجمع لدلالتها على مفرد، فكذلك الكتاب لم يجمع لأنه يمثّل كلام الله، فأصله واحد وإن اختلف مضمون ما يحمله من أحكام وتشريعات بحسب اختلاف العصور والأزمان. ولذلك فإنه عند إرادة مجموع ماأنزل من كتب سماوية تلحقه (أل) الجنسية؛ للدلالة على ذلك مع المحافظة على دلالة الإفراد في لفظ (كتاب).

وبعد أن قُررّ – في هذه الآية الكريمة – الأصل الذي يترتب عليه قبول العمل أو ردُّه وهو الإيمان انتقل إلى الأصل الثاني الذي لا يتحقق البرّ إلا به وهو العمل المحقق للإيمان والدّال على صدقه، فقال تعالى: ﴿وءاتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب﴾ " وقدم الإيمان على أفعال الجوارح وهو إيتاء المال والصلاة والزكاة ؛لأن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح، لأن أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنما تنشأ عن

---

(١) السابق نفسه.

(٢) التحرير والتنوير ١٢٩/٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(العدل)(١)، ولما كان أشرف أعمال الجوارح وأجلها ما يرتد عليه النفع للخلق وسد حاجة المحتاج، ودفع الضرر عن المتضرر بدأ بإيتاء المال، وقرنه بلفت الانتباه للفئات المحتاجة في المجتمع حتى لا يغفل الموسرون عنهم، ولا يجدوا عذرًا في عدم الانتباه لهم، وبذل المال في سبيل سد حاجتهم.

والفعل (آتى) من الأفعال التي تتعدى إلى مفعولين، وهما هنا (المال، ذوي القربى)، والجمهور على أن المفعول الأول في قوله تعالى: ﴿وءاتى المال على حبه ذوي القربى﴾ هم (ذوي القربى) [٢]، وقدم المفعول الثاني (المال) والحال (على حبه) " للاهتمام"[٣] والاعتناء به، فمتى سمحت النفس بإيتاء المال في حال حبّها وحاجتها له وضنّها وتعلّقها به كان من اليسير عليها أن تدفعه لمن يحتاجه، وليست محتاجه في هذا الحال إلا إلى لفت نظرها لمن يستحق دفع المال إليه حتى لا تغفل عنه، كما أن " في المفعول الأول مع ما عطف عليه طولًا لو روعي الترتيب لفات تجاوب الأطراف"[٤].

وأطنب بشبه الجملة (على حبّه)؛ للدلالة على الحال التي ينفقون المال عليها، وهذا من (التتميم) [٥] الذي يراد به المبالغة في مدحهم، فقد روي عن النبي – ﷺ – أنه قال لرجل لما سأله أيّ الصدقة أفضل؟ "أن

---

(١) البحر المحيط ٥/٢

(٢) المصدر نفسه.

(٣) إرشاد العقل السليم ١٣٩/١، روح المعاني ٤٦/٢.

(٤) إرشاد العقل السليم ١٣٩/١.

(٥) سبق بيانه، ينظر ص٢٨ من هذا البحث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر"[1]، لأن في ذلك دلالة على صدق الإيمان وقوته بإيثار مطالب مرضاة الله على هوى النفس ورغباتها، ولا سيما في حال شدة حبها لما ترغب وتعلقها به، وهذا المعنى يأتي متناسقًا مع ما تقدم في البداية من نفي البر عن التوجه جهة المشرق والمغرب إذا لم يكن دافعه الإيمان الحقيقي بالله - سبحانه وتعالى - فالبر لا يتحقق إلا بالأعمال التي تدل على قوة الإيمان وتمكنه من النفس.

وقد عدّه الزركشي من المجاز؛ لأنه من باب "إضافة الفعل إلى ما ليس بفاعل له في الحقيقة"[2]، وهو مجاز عقلي، والإضافة على هذا الوجه جاءت على أبلغ أسلوب في مدح المتصفين بهذه الصفات الجليلة؛ لأن إضافة المصدر إلى المفعول (المال) دون الفاعل الذي هو مقصود بالمدح هنا فيه إشارة إلى الغريزة الإنسانية بشكل عام، وهي غريزة حب المال والرغبة فيه، هذه الغريزة الموجودة في كل نفس إنسانية، فالتعبير القرآني لم يضف المصدر للفاعل؛ لأنه لا يريد أن يثبت تحقق هذه الصفة فيهم، أي صفة حب المال، أو يشعرنا بنسبتها لهم، بل أراد بهذه الإضافة أن يقول إنهم عندما أنفقوا المال - رغم ما ركز في النفس الإنسانية من حب له وطمع فيه - كانوا قد تحرّروا من غريزة حب التملك، ولا سيما تملك المال.

وذكر السيوطي أن (على) هنا بمعنى المصاحبة أي (مع حبه)[3]، ومعنى (على) الأصلي هو الاستعلاء، واستعير معناها في هذا الموضع للمصاحبة، استعارة تبعية في الحرف، وذلك للدلالة على شدة تمكنهم من

---

(١) السنن الكبرى ٣٦/٢.
(٢) البرهان ٢٩١/٢.
(٣) الاتقان ٤٧٨/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الغريزة المتأصلة في النفس الإنسانية، واستعلائهم عليها استعلاءً جعلهم قادرين على التحرر منها، ومن سلطتها التي تفرضها على أصحاب النفوس الضعيفة الذين تسيطر عليهم غريزة حب المال، لأن ثمّة حبّ آخر أكبر منه يملأ قلوبهم وهو حبّ الله – عزّ وجلّ –.

وجاء ترتيب الفئات المستحقة للعطاء مراعيًا تقديم الأهمّ فالأهمّ، فبدأ بذوي القربى لأنهم أولى الناس بتفقدهم وسدّ حاجتهم، فاستحقاقهم للعطاء ترتب على اعتبارين، اعتبار الحاجة وهو مشترك بين هذه الفئات جميعًا، واعتبار القرابة وهي رابطة أكّد الدين الإسلامي في كثير من النصوص الصريحة على وجوب مراعاتها.

وذكر بعدهم اليتامى ؛ لأن الطفل اليتيم الفقير أكثر الناس إثارة للرحمة والشفقة، فهو أولى بالعطاء، فقد جمع مع الحاجة الضعف وانعدام الحيلة وفقد المعيل[١]، وقدّم المساكين على ابن السبيل؛ لأن على المجتمع أن يسدّ أولًا حاجة أبنائه، ثم يوجّه بعد ذلك اهتمامه للأفراد الطارئين عليه.

ولما كان الغرض من هذا التعداد هو بيان للفئات المحتاجة في المجتمع أخّر السائلين؛ لأنهم أقلهم حاجة إلى ذلك، فبتعرضهم للسؤال يظهرون حاجتهم، بخلاف المساكين الذين لا تُعلم حاجتهم إلا مما يظهر عليهم من الفقر والمسكنة[٢].

وختم بالرقاب ؛ لأن حاجتهم تختلف عن حاجة الفئات السابقة، فحاجتهم أقل[٣]، لأنها لا يترتب عليها هلاك البدن، بل إهدار الكرامة الإنسانية التي

---

(١) البحر المحيط ٨/٢.

(٢) التفسير الكبير ٣٧/٥.

(٣) المصدر السابق ٣٦/٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سعى الدين الإسلامي لحفظها، ولذلك وجّه إلى دفع المال في سبيل ذلك بإعتاق رقاب من وقعوا في أغلال الرقّ والعبودية(١).

ومما يضاف إلى بلاغة النظم القرآني في ترتيب هذه الفئات بلاغته في اختيار التعبير اللائق بكل فئة، والتنويع في المفردات المستعملة، مما أضفى على السياق حيوية أبعدت السأم الذي قد يتسبب فيه ورود الألفاظ كلها على نفس النسق، فلو ساوى بينها في التعبير عنها بالجمع فقال: الأقارب واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والسائلين والمملوكين، لشعرنا برتابة الأسلوب، ولتسرّب الملل إلى نفوسنا من جرّاء ذلك، ولكنه اتّبع أسلوبًا بديعًا، فتنقّل بنا من جمع معرّف بالإضافة (ذوي القربى) إلى جمع معرّف باللام (اليتامى والمساكين) إلى مفرد مضاف (ابن السبيل)، ثم عاد إلى الجمع مرة أخرى (السائلين)، وختم بشبه الجملة (وفي الرقاب).

وأفرد (ابن السبيل) لغربته، و " لإنفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه"(٢)، وأطلق على المسافر (ابن السبيل) مجازًا "لملازمته له"(٣)، أو " لأن السبيل تبرزه، شبّه إبرازها له بالولادة، فأطلقت عليه البنوّة مجازًا "(٤)؛ ففيه استعارة مكنية، حيث شبّه السبيل بالأم أو الأب، وحذف المشبه به وأتى بلازم من لوازمه وهي البنوّة.

وعبّر عن المملوكين بشبه الجملة "في الرقاب" للإيذان بأنهم لا يملكون المال كسابقيهم بل يؤدي لمالكيهم لعتق رقابهم، فإنفاق المال في هذا الوجه يختلف عنه في الوجوه السابقة، لذلك جاء أسلوب التعبير عنه مختلفا،

---

(١) تفسير المنار ١١٦/٢.
(٢) روح المعاني ٦٤/٢.
(٣) الكشاف ٢٤٤/١.
(٤) البحر المحيط ٧/٢.

وفيه إيجاز حذف، والتقدير: (في سبيل إعتاق الرقاب)، ولا يخفى على ذي ذوق مافي التعبير بالحذف من جمال في العبارة، وسموّ في المعنى.

وقد استعمل القرآن الكريم تعبيرًا في غاية الرّقيّ للدلالة على هذه الفئة الخاصة في المجتمع، فلم يطلق عليهم لفظًا يشعرهم بالذّل والهوان (كالعبيد أو المملوكين) مراعاة لمشاعرهم من جهة، ودفعًا لثبوت الرّق والاستعباد في حقهم من جهة أخرى، بل أطلق عليهم لفظ (الرقاب)، والرقبة مؤخرة العنق، وإطلاقها عليهم مجاز مرسل علاقته الجزئيّة.

وقد دل حذف مفعول الفعل (عاهدوا) على قصد التعميم، وعدم إرادة تخصيص الفعل بمفعول معين، وقد عدّه السكاكي من سحر الكلام "حيث يتوصل بتقليل اللفظ إلى تكثير المعنى" (١).

وكما قيّد الوفاء بالعهد بما يدل على شموله وسرعة إنجازه، قيّد الصبر بما يدل على شموله، وسموّ منزلتهم منه، فالمحققون للبرّ لا يقتصر صبرهم على نوع من البلايا دون آخر، بل يشمل جميع ما يمكن أن يحيق بالإنسان من بلايا سواء منها ما كان متعلقا بالمال، أو البدن، أو في مدافعة العدو الذي يريد أن ينال منهما جميعًا أو من أحدهما، وقد عبّرت الآية عن هذه المواطن الثلاثة التي لا يُحمد الإنسان باتّصافه بالصبر إلا بثباته فيها جميعًا بثلاث كلمات شملت كل المصائب التي تلمّ بالإنسان، فهم يصبرون في (البأساء) أي: الفقر، و (الضراء) أي: المرض، و (حين البأس) أي: الحرب أو القتال(٢).

وأما دلالة هذا القيد على سموّ منزلتهم من الصبر؛ فقد جاءت من دلالة

---

(١) مفتاح العلوم ٣٣٤.

(٢) [illegible]

الألفاظ المختارة على أنهم يتحلون بالثبات عليه حتى في أقسى المصائب وأشدّها وأقواها وقعًا على الإنسان وإيلامًا له، فقد اختار البأساء بدل الفقر، والضّراء بدل المرض، والبأس بدل الحرب أو القتال، لأن كل واحدة من هذه الألفاظ المختارة تعطي معنى أقوى من المعنى الذي تعطيه الألفاظ المتروكة، فالبأساء هي شدة الفقر، والبأس يطلق على الحرب للدلالة على ضراوتها وشدة وطئتها على النفوس[1]. و "الضرّاء الشدة.. والضُرّ - بالضم - الهُزال وسوء الحال[2]، فاجتماع هذه الألفاظ الثلاثة في الدلالة على الشدّة يوحي بأنهم لما صبروا عند اشتداد الأهوال والمصائب كانوا على مادون ذلك أقدر في التزام الصبر والثبات عليه.

وتتجلّى بلاغة القرآن الكريم - أيضا - في أن اختياره لهذه الألفاظ لم يكن لأنها معبّرة عن المعنى المراد بدلالتها المعنوية فقط من حيث دلالتها على الشدّة، ومن حيث شمولها لكل أنواع البلايا التي قد تصيب الإنسان، بل دلّت على ذلك من جهة أصوات حروفها - أيضا - فثمّة كلمتان بينهما جناس ناقص[3] هما (البأساء) و (البأس)، والضّراء كذلك ختمت بالهمزة، فتكررت الهمزة أربع مرات في ثلاث كلمات، وإذا علمنا أن الهمزة هي أثقل الأصوات وأكثرها مشقة في النطق[4] أدركنا لماذا توالت الهمزات هنا بشكل ملحوظ.

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (بأس).

(٢) المصدر السابق، مادة (ضرر).

(٣) الجناس: "تشابه اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى" وهو نوعان: تام، وهو ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور: نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها، وغير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأمور الأربعة السابقة - ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن ص١٥٩.

(٤) الأصوات اللغوية ٧٨.

فالشدة التي يتصف بها صوت الهمزة والتي تتضاعف بتكرار هذا الصوت أربع مرات توحي بمدى الشدّة التي يقع فيها الإنسان عندما تحلّ به هـذه المصـائب، وبأن البرّ لا يوصف به إلا من كان قادرًا على الثبات على الصـبر فـي أشـدّ المصائب وأبلغها، وقد أسهم في الإيحاء بهذا المعنى تكرار الأصـوات الشـديدة المجهورة المتمثّلة في الباء المكرّرة في (البأسـاء) و (البـأس) والضّـاد فـي (الضرّاء) فضلا عن توالي التشديد في (الضّاد) و (الرّاء) الذي يُشعر بالمبالغـة في الإيحاء بشدة هذه المصائب ومبلغ أثرها في النفس.

واختيار حرف الجر (في) يوحي بأن البرّ لا يستحق أن يوصف به إلا من بلغ أعلى مراتب الصّبر وأسماها، لذلك لم تمتدحهم الآيـة بالصـبر عند اشتداد المصائب والبلايا فحسب، بل أشارت إلى ثباتهم عليه في حـال دوامها واستمرارها، فاستعملت حرف الجر الدال على الظرفية للإيحاء بأن الصبر حالهم حتى عندما تغدو الشدة والبلوى كالظرف المسـتحوذ علـيهم والمستغرق لهم بثباتها ودوامها، أما من يصبر على صغار المصائب دون جليلها، وعلى الطارئ منها دون الدائم والمستمر فلا يستحق أن يكون مـن الصابرين الذين أثنت عليهم هذه الآية[1].

وتتجلّى بلاغة النظم هنا في ترتيب المواطن التي يُحمد الصّبر فيها، فقـد راعى في ذلك الترقّي بالإنسان من الشديد إلى الأشدّ، يقـول أبـو حيّان: "وهذا من باب الترقّي في الصبر من الشديد إلى الأشدّ، فذكر أولًـا الصبر على الفقر، ثم الصبر على المرض، وهو أشد من الفقر، ثم الصبر على القتال، وهو أشد من الفقر والمرض"[2].

---

(١) البحر المحيط ٢/١٠.

وجاءت جملتا الختام (أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون) مؤكدتين لهذا المعنى بغاية الإيجاز والإعجاز والسموّ البلاغيّ، فختمت مدح المحققين للبر بإثبات تجسّد الصدق والتقوى فيهم دون غيرهم ممن تجرّدت أعمالهم من الإيمان أو افتقر إيمانهم للعمل.

وقد فصل بين جملة ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وما سبق لكمال الاتصال، فهي بمنزلة التأكيد المعنوي لما سبق بيانه، فإنها لما بيّنت أنهم حققوا الإيمان بالله بالعمل الصالح والخلق الحسن كان ذلك دليل صدقهم، فلم تأت جملة ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ لإعطاء معنى جديد، بل لتأكيد ما سبق إثباته لهم ببيان أن صدق الإيمان لا يكون إلا عند اقترانه بالعمل الذي يُراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذه هي حقيقة التقوى التي جعل وصفهم بها مسك ختام الآية.

وقد عبّر عن الصّدق بالفعل الماضي ؛ للدلالة على أنهم لما صدقوا في الإيمان بالله وحده فوقع منهم الصدق وقوعًا متحققا لا مراء فيه قادهم ذلك إلى تقوى الله - عزّ وجلّ - فكانت كالسّجيّة الراسخة فيهم لا تتغيّر ولا تتبدل، فهم ثابتون عليها، وسائرون على طريقها بلا فتور ولا كلل(١). وفيه إشارة إلى أن المتصفين بهذه الصفات هم المتقون الذين افتتحت السورة بالثناء عليهم، وبيان علوّ قدرهم وسموّ منزلتهم.

ولسموّ منزلتهم أشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعد (أولئك)، وكرّره تأكيدًا لرفيع منزلة أولئك الكرام البررة الأتقياء. وجيء بضمير الفصل (هم) للدلالة على اختصاص هؤلاء بالاتصاف بالتقوى دون

---

(١) المصدر السابق ١١/٢

غيرهم[١]، ولتأكيد ذلك في حقهم، واختصاص وصفهم بالتقوى بهذا التأكيد دون غيره من الصفات الأخرى المثبتة لهم فيه دلالة على شرف هذه المنزلة وعلوّها، لكونها جامعة لكل الفضائل التي حثّ عليها الدين الحنيف.

وقد استعمل الاسم الموصول (الذين) في قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ ولم يستعمل (مَنْ) على غرار ما فعل في بداية الآية في قوله تعالى (مَنْ آمن) ؛ لأن (الذين) أعرف من (مَنْ) " وأكثر تحديدًا ووضوحًا، فجيء بالموصول المشترك في بداية الوصف؛ لأن الموصوفين كانوا مبهمين بالنسبة لنا، ولم يُكشف الوصف عن شخصيتهم بعد، ولما توالت الأوصاف المعرفة لهم، - والوصف من أقوى طرق التعريف - صح أن يُعبّر عنهم بالاسم الموصول الأكثر تعريفًا، وأن يشير لهم باسم الإشارة لتمييزهم أكمل تمييز بتنزيلهم منزلة المحسوس المشاهد.

وقد أكّدت هذه الآية على أن البرّ لا يتحقّق إلا بتحقق أصول الدين وغاياته، فكانت من أسمى وأرقى ما يمكن أن يُضرب مثلًا لبلاغة الإيجاز، فجاءت "جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحًا أو ضمنًا، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء، صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿من ءامن بالله ﴾ إلى ﴿والنبيين ﴾، وإلى الثاني بقوله: ﴿ وءاتى المال ﴾ إلى ﴿ وفي الرقاب ﴾، وإلى الثالث بقوله: ﴿ وأقام الصلاة ﴾ إلى آخرها..." [٢].

---

(١) إرشاد العقل السليم ١/١٩٤.

(٢) تفسير البيضاوي ١/٤٥٥ بتصرف يسير.

- المبحث الثاني: بلاغة النظم في سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿ إن الذين اتـقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[1].

تقرّر هذه الآية الكريمة الحال التي يكون عليهـا المتقـون عنـدما يغريهم الشيطان بفعل ذنب أو ارتكاب خطيئة، فإنهم وإن وقعوا فـي ذلـك فسرعان ما يعودون لرشدهم، ويتبيّـنون خطأهم، ويتوبون إلـى بـارئهم بتذكرهم لما يوجب انتهاءهم عن المعصية وإعراضهم عن وسوسة الشيطان وإغرائه، فيتذكرون ما أمرهم الله – سبحانه وتعالى – به من وجوب طاعته واجتناب معصيته، وعدم اتباع خطوات الشيطان، وما يزيّـنه للإنسان من أفعال توجب غضب الله – جلّ وعلا – وتجلب سخطه، ويتذكرون عظمة من عصوا وأليم عقابه، فإذا هم ثابتون على أنوار البصيرة، عارفون للحق ملتزمون به، مدركون لحيَل الشيطان ومكائده، منتهون عما يزيّـنه لهـم ويغريهم به من معاصي وآثام[2].

ولما بيّن الله – سبحانه وتعالى – للنبي – ﷺ – السبيل الأمثل لإبعاد وساوس الشيطان وخطراته عن النفس، وذلك باللجوء إلـى الله – سبحانه وتعالى – والاستعاذة به – جلّ وعلا- منه فـي قولـه تعـالى: ﴿ وإمـا ينزغنّـك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾[3]. علّل الأمر بأن هذا هو شأن المتقين الذين وإن استزلهم الشيطان فإنهم سرعان ما يتـنبّهون لمكائده، فيقلعون عن الذنب وينتهون عن المعصية.

---

(١) الأعراف ٢٠١.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٧٨٦/٢، الجامع لأحكام القرآن ٣٤٩/٧.

(٣) الأعراف ٢٠٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد جاءت هذه الآية في سياق خطاب موجه إلى النبي - ﷺ - أمر فيه باتقاء وساوس الشيطان ونزغاته، وأرشد إلى الوسيلة التي تبعدها عن النفس، وذلك بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والأمر يحتاج إلى ما يحفز المأمور، ويدفعه إلى الامتثال له وهو محب راغب مستشعر لأهمية ما يقوم به مقتنع به، لذلك عضد الأمر هنا بما يؤكد كون التنبه لمكائد الشيطان ووساوسه هو سلوك أعلى الناس وأرفعهم درجة وهم المتقون، فالخطاب وإن كان موجّهًا إلى النبي - ﷺ - إلا أن المقصود به عموم أمته[1]، ولذلك أخرج الكلام عن مقتضى الظاهر[2]، فجاءت جملة ﴿ إن الذين اتقوا ﴾ من الضرب الطلبي المؤكد بمؤكد واحد وهو (إن)، على الرغم من أن المخاطب هنا ليس بشاكّ في الخبر ولا متردّد في قبوله، إلا أنه خاطبه بما يخاطب به الشاكّ والمتردّد فنزّله منزلتهما.

لقد منح التأكيد هنا المعنى قوة في إثبات هذا السلوك للمتقين ؛ لأن العموم المقصود من وراء هذا الخطاب الخاص اقتضى التأكيد لكل من يشك في سلوك المتقين عندما يراودهم الشيطان، أو يغريهم بفعل ذنب أو ارتكاب خطيئة.

---

(١) التفسير الكبير ١/٨٠.

(٢) ينقسم الخبر إلى ثلاثة أضرب؛ الابتدائي وهو: ما خوطب به خال الذهن، ويأتي خاليًا من المؤكدات، والطلبي وهو: ما خوطب به الشاك أو المتردد ويؤكد بمؤكد واحد، والإنكاري وهو: ما خوطب به المنكر لمضمون الخبر، ويؤكد بأكثر من مؤكد. ويخرج الخبر عن مقتضى الظاهر بأن: ١- ينزل خالي الذهن منزلة المتردد، فيؤكد الخبر له بمؤكد واحد. ٢- ينزل غير المنكر منزلة المنكر، فيؤكد الخبر له بأكثر من مؤكد. ٣- ينزل المنكر منزلة غيره، فيساق الخبر له خاليًا من المؤكدات - ينظر: مفتاح العلوم ٢٥٨، الإيضاح ٩١/١، [illegible] ٩١، علم المعاني د/ بسيوني فيود ٥١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي اختصاص المتقين به إشارة إلى أن التقوى هي الحصن المنيـ الذي يمنع الشيطان من التمكّن من المسلم أو السيطرة عليه؛ ولذلك جعلـ المولى - عزّ وجلّ - خير لباس أبدله الإنسان بعد أن نزع عنه الشيطان لباسه ليريه سوأته، قال تعالى:﴿ يابني ءادم قد أنزلنا عليكم لباسا يـواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك مـن ءايـات الله لعلهم يذكـرون ﴾ (١)، ومن هنا جرى تعريف المسند إليـه (الـذين) بالاسم الموصول، لزيادة تقرير الغرض الذي سيق الكلام من أجله، فالغرض هـو بيان دور التقوى وأهميتها لحفظ الإنسان من مكائد الشيطان و وساوسه، وقد أدى الاسم الموصول دورًا مهما في بيان ذلك، فمع أنهم عندما استجابوا لما أغراهم الشيطان به - ولو لبرهة قصيرة - قد خرجوا عن تقـوى الله، إلا أن التعبير القرآني لم يسمّهم بما يدل على مفارقتهم للتقوى حتى في مثـل هذه الحالة، فما وقعوا فيه من زلل لم ينف كونهم من المتقين(٢)، ولكنه لـم يعبّر عنهم بالوصف الدال على الثبات والرسوخ (المتقون)، ولـم يعـرفهم بالألف واللام بل بالاسم الموصول؛ ليتوصّل إلى وصفهم بالجملة الفعليـة (اتقوا) الدالة على تحقق حدوث الفعل منهم، وهذا أكثر مطابقة للمقام. كمـا أن فيه بيانًا للفعل المسبب لتمكنهم من التغلب علـى وسـاوس الشـيطان وخطراته، وتنويهًا بفضله وفضل المتصفين به.

ولقد حرصت الآية على بقاء صورة هذه النفوس التقيّـة طـاهرة نقـيّة حتى في حال وقوع المعصية أو الذنب منها، فلم تـنسب لهـا إرادة الذنب أو الرغبة في الإقدام عليه، بل صوّرت وقوعهم فيـه أو مشـارفتهم

---

(١) الأعراف ٢٦.

(٢) الدر المنثور ٦٣٣/٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك تصويراً بديعاً جعله أمراً طارئاً خارجاً عن إرادتهم أصيبوا به على حين غفلة منهم، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿ إذا مسّهم طائف من الشيطان ﴾، وقد اشتملت هذه الجملة على استعارتين تمثلان قمّة السمو البلاغي، الأولى في الفعل (مسّهم) حيث شبه الإصابة بالمس، ثم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتق من المسّ (مسّ) بمعنى: (أصاب) على طريق الاستعارة التصريحية التبعية[1].

وبلاغة هذه الاستعارة تكمن في اختيار الفعل (مسّ) للتعبير عما أصابهم به الشيطان من ذنب أو خطيئة، فالمسّ في اللغة بمعنى: اللمس[2]، إلا أن اللمس أبلغ من المسّ، بمعنى أن المسّ أخفّ منه، " فاللمس ما كان مبالغاً فيه، والمسّ أدنى ملاقاة جسم لآخر... ومن الشواهد على خفّة المسّ دون اللمس قول أهل الجنة الذي حكاه عنهم القرآن، وهو: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصيب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾[3]، فنفوا أدنى درجات التعب والإعياء[4].

فضلا عن أن التعبير بالمسّ في مقام الحديث عن المتقين أبلغ ؛ للإشعار بعدم تمكّن الشيطان منهم، فما يصيبهم به لا يعدو أن يكون مسًّا خفيفا لا يصل إلى درجة المبالغة في الإصابة التي يعبّر عنها اللمس، فهو

---

(١) الاستعارة التصريحية هي: الاستعارة التي صُرّح فيها بالمشبه به وحذف منها المشبه، واستعير المشبه به له، وتكون الاستعارة تبعية إذا كانت في الأفعال أو المشتقات منها، أو في الحروف لأنها تابعة للاستعارة في المصدر – ينظر: مفتاح العلوم ٤٨٢، ٤٨٩، الإيضاح ٤٢٩/٢، البيان في ضوء أساليب القرآن ١٦١.

(٢) مفردات غريب القرآن، مادة (مسس).

(٣) فاطر ٣٤، ٣٥.

(٤) دراسات جديدة في إعجاز القرآن ٩١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يقوى على إغوائهم بالإتيان بالخطايا والذنوب العظيمـــة، وإن أغراهم بصغائر الذنوب فإنهم لا يتلبسون بها تلبسًا كليًا ولا يتمـــادون فيهـا، بل سرعان ما يتنبهون ويتوبون مما فعلوا.

وقد أسهمت الاستعارة الثانية في ﴿ طائف مــن الشـيطان ﴾ مع الاستعارة السابقة في الإيحاء ببراءة هذه النفوس وطهرها ونقائها، فالإيمان الراسخ في نفوسهم يجعلها في منأى عن أن توحي لهم بالمعصية أو تغريهم بها، ولذلك جعل هذا الفعل فعلًا شيطانيًا محضًا، وإذا كان (المس) قد صور بدلالته اللغوية خفـة وضآلة ما يوقعهم الشيطان فيه من ذنوب، فإن كلمة (طائف) قد صوّرت شدة إلحاح الشيطان وإصراره على إغواء المتقين ولو بالشيء اليسير.

و(طائف) اسم فاعل من "طاف بالقوم وعليهم طوفًا وطوفانًا ومطافًا وأطاف: استدار وجاء من نواحيه. وأطاف فلان بالأمر: إذا أحاط به"[١]. وجاء في مقاييس اللغة:"الطاء والواو والفاء أصل واحد صحيح يدل على دوران الشيء على الشيء، وأن يحفّ به"[٢]. وقيل: هو "من طـاف بـه الخيال يطيف طيفاً أي: ألم"[٣]، والذي يظهر أن المعنى الأول هو المراد؛ لأنه الأصح والأبلغ، حيث شبه الشيطان في حال إحاطة وسوسته بالإنسان وإلحاحه في طلب إغوائه بحال من يطوف حول الشيء، بجامع الإحاطة في كل منهما، واستعير المشبه به للمشبه على طريـق الاستعارة التمثيلية التبعية.

ولقد اختار الطبري هذا المعنى لأن وسوسة الشيطان لا تكون كخطرة

---

(١) لسان العرب، مادة (طوف).

(٢) مقاييس اللغة، مادة (طوف).

(٣) إرشاد العقل السليم ٣/٣٠٦.

الخيال ولمتّه، فالشيطان يلحّ على الإنسان ويصرّ عليه بالوسوسة بغية إيقاعه في المعصية[1]. وهذا المعنى هو الأبلغ في مقام الحديث عن المتقين؛ لأنه يصوّر أن وقوعهم في الذنب لم يكن بمجرد أن خطر في أنفسهم كما يخطر الخيال، بل كان نتيجة مكائد الشيطان المتوالية وإغراءاته المتتالية التي أحاطت بهم من كل جانب، فكان من الطبيعي - وهذا حالهم - أن يصيبهم شيء يسير منها، ولا يكون في ذلك مدخل للانتقاص من تقواهم أو القدح فيها، فمع كل هذا الحرص على إغوائهم لم يتمكن من النيل منهم، فكان كأنه قد طاف أو دار حولهم فمسّهم مسًا طفيفًا، ولم يستطع أن يقترب منهم، فضلا عن أن يلج إلى قلوبهم ويمكّن حبّ المعصية منها.

وجاء أسلوب الشرط بـ (إذا)، ولم يأت بـ (إنْ) كالآية التي سبقتها؛ لأن (إذا) " تدخل على المتيقّن والمظنون والكثير الوقوع، بخلاف (إنْ) فإنها تستعمل في المشكوك والموهوم والنادر"[2] فالآية السابقة واردة في حق النبي - ﷺ - ووسوسة الشيطان له مشكوك فيها، فقد تقع وقد لا تقع، أما وسوسته للمتقين فمتيقّن وقوعها لكونهم أقلّ درجة منه - ﷺ - وليسوا معصومين من الخطأ والزلل مثله.

وإنك لتشعر بمدى الدقّة القرآنية في اختيار الكلمة المعبّرة عما يحدث للمتقين من جهة الشيطان عندما تضعها في مقابل الكلمتين اللتين عبّرتا عما يحدث من جهته لمن هو أعلى منهم درجة وهو النبي - ﷺ - في قوله تعالى: ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع

---

(١) جامع البيان ١٥٧/٩.

(٢) معترك الأقران ٥١/٢.

عليم ﴾ (١)، ومن هم أدنى منهم درجة وهم أصحاب الغيّ والضلال في قوله تعالى: ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون ﴾ (٢)، وذلك في الآية التي سبقتها والتي تليها، فقد رتّبت ترتيبًا دقيقًا، فبدأت بمن هو أقل تأثرًا، وانتهت بالأكثر تأثرًا بما يوسوس الشيطان له، وجعلت المتقين بينهما لأنهم لا يرتقون إلى مرتبة الأنبياء – عليهم السلام – ولا ينحدرون إلى منزلة من ضلّ وكفر، فجعلت وسوسة الشيطان للنبي – ﷺ – (نزغ)، وللمتقين (مس)، ولأهل الضلال (إمداد)، والمسّ أبلغ من النزغ؛ لأن النزغ أدنى حركة والمسّ الإصابة (٣)، والإمداد أبلغ منهما فهو يعني الزيادة المتصلة (٤)، فهؤلاء لا يحتاجون من يوسوس لهم بفعل المعصية، فنفوسهم المريضة تحملهم على المعصية وتحثّهم عليها، وحال الشياطين معهم يقتصر على إغرائهم على التمادي والزيادة فيها (٥).

وهكذا فإن الآية بسياقها الساحر استطاعت أن تظهر وقوع الخطأ والزلل من الذين اتقوا في صورة المتيقّن أو المترجّح حدوثه، ومع ذلك جعلته أبعد ما يكون عن أن ينسب أو يضاف لهم، بل هو ﴿ طائف من الشيطان ﴾ فنكّر لفظ (طائف) للتحقير والتقليل من شأنه (٦)، وقد جاء جواب الشرط ليوحي بضعف قدرته على التأثير فيهم.

كما جاء الفعل (تذكّروا) هنا ليبيّن السبب الذي يجعل هؤلاء

---

(١) الأعراف ٢٠٠.
(٢) الأعراف ٢٠٢.
(٣) البحر المحيط ٤/٤٤٥.
(٤) تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (مدد).
(٥) الكشاف ٢/١٨٠، الجامع لأحكام القرآن ٧/٣٥١.
(٦) إرشاد العقل السليم ٣/٣٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتقين في منأى عن أن ينال الشيطان منهم أو يستحوذ عليهم، فهم لا يغلقون عقولهم، ولا يحجزون ملكاتهم العقلية عن أن تنطلق ملتمسة طريق الحق واليقين.

وعبّر بصيغة التشديد (تذكّروا) لدلالته على التكثير والمبالغة في الفعل[١]، فهذا الفعل يوحي بالإصرار والقوة والعزيمة التي تحلّى بها المتقون في مجابهة مكائد الشيطان الواهنة الضعيفة.

وقد أدى حذف المفعول في هذا المقام دورًا بيانيًا مهمًّا، حيث أوحى عدم تعليق فعل التذكّر بمفعول معين بكثرة الدواعي والأسباب المانعة من الاغترار بمكائد الشيطان ووساوسه، ففي النصّ على مفعول معيّن حصر وتقليص لهذه الدواعي، وهذا المعنى لا يراد[٢].

ولذلك جاءت جملة الختام ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ معبّرة عن سرعة إقلاعهم عن الذنب أو إمساكهم عنه، ورغم قصرها وإيجازها إلا أنها – بألفاظ معدودة– صوّرت تلك العودة والإنابة صورة بديعة جسّدت حال المتقين، وبيّنت كيف كانت مكائد الشيطان لهم سبيلًا لمزيد من السموّ والارتقاء، وقد أدى الحرفان اللذان صُدّرت بهما الجملة – وهما (الفاء العاطفة) و (إذا الفجائية) – دورًا مهمًّا في رسم أبعاد الصورة، وفي تقرير أن ما أصابهم من الشيطان لم يكن سوى مسّ طفيف، أما إغواؤهم بالتمادي في الذنب فلا قدرة له عليه.

كما أوحت الفاء العاطفة في قوله ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ بدلالتها على التعقيب – أي: حدوث المعطوف عقب المعطوف عليه بلا انفصال

---

(١) سر الفصاحة ٣٥.

(٢) دلائل الإعجاز ١١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والرجوع إلـى الله – سـبحانه وتعالى – وآزرتها (إذا) بدلالتها على المفاجأة(٢) في الإيحاء بهذا المعنـى حتى لكأنه حدث فجأة دون مقـدمات، فلم يكن منهم تكاسل ولا تـوانٍ ولا تسويف، بل عزيمة وإصرار وقناعة حملتهم على سلوك الطريق المستقيم والتـنبّه لمكائـد الشيطان ومزالقه(٣)، وكأنهم كانوا عندما مسّهم الشـيطان في حالة من العمى وما أن تذكّروا سرعان ما ارتدّ لهم بصرهم ﴿ فإذا هـم مبصرون ﴾، شبّه الاهتداء بالإبصار بجامع الإدراك في كل منهمـا، ثـم استعير المشبه به للمشبه، ثم اشتقّ مـن البصـر (مبصـرون) بمعنـى: مهتــدون للحق، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

هذا هو حال المتقين يرتقون من علوّ إلى علوّ، فما تزيدهم وساوس الشيطان ومكائده وإغراءاته إلا ثباتًا على الحق، وبعدًا عن مواطن الزلـل، وقربًا من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني ٦١.

(٢) التفسير الكبير ٨١/١٥.

(٣) السابق نفسه، كذا: البحر المحيط ٤٤٥/٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثالث: بلاغة النظم في سورة يونس:

قال تعالى: ﴿ إنّ في اختلاف الليل والنهـار ومـا خلـق الله فـي السموات والأرض لآيات لقوم يتقـــون ﴾[١].

سأل أهل مكة النبي - ﷺ - أن يُنزّل عليهم آية تدل علـى صدق نبوته كما أوتي النبيون من قبله، فأنزل الله - سبحانه وتعالى - هذه الآية لينبّههم إلى أن في هذا الكون الذي يعيشون فيه مـن الدلائل العظيمـة والآيات البليغة ما يكفي لإثبات ذلك، فمن يتـدبّره ويتفكّـر فيـه يـدرك عظمة خالقه ووحدانيّـــته، وقدرته المطلقة على كل شيء، واستحقاقه لأن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له[٢].

وقد لفت أنظارهم هنا إلى اختلاف الليل والنهار بتعاقبهمـا مجيئًـا وذهابًا، واختلاف أحوالهما، وما خلق الله - سبحانه وتعالى - في السموات والأرض من مخلوقات تدلّ - بعجيب صنعها، وبديع خلقها، وانتظام أمرها - على قدرة الخالق وعظمته، وأكّـد أن الانتفاع بهـذه الآيات العظيمة والاتعاظ بها هو صفـة المتقـين حتى لكأنها قد اختُصّت بهم وحدهم دون سواهم من الغافلين عنها وعما تحمله من دلائل وعظات[٣].

وكانت هذه السورة الكريمة قد بدأت بما يشير إلى إنكار المشركين لنبوة محمد - ﷺ - وتعجّبهم من أن يبعث الله بشرًا منهم لتبليغ رسالته لهم، قال تعالى: ﴿ الر * تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشّر الذين ءامنوا أن لهم قدم صـدق عنـد

---

(١) يونس ٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣١١/٨.

(٣) جامع البيان ٨٦/١١، كذا: تفسير القرآن العظيم ٨٩٦/٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾(١)، فجاءت هذه الآية في سياق عدد من الآيات الكونية التي ساقها المولى – جلّ وعلا – كدليل قاطع لنقض حجتهم وردّ دعواهم، فما في الكون من آيات تبهر من يتأملها ويتدبر أحوالها أدعى للعجب من إرسال بشر لهم، وتغيير حاله من يتيم فقير إلى نبيّ مرسل، فإن هذه الآيات العظيمة تدل على أن وراء كل شيء يقدّره الله – سبحانه وتعالى – حكمة بالغة، ومنفعة جليلة لا يعلم مداها إلا الله – جلّ وعلا –(٢).

وكما بيّن في هذه الآية أن التقوى هي سبب الانتفاع بالآيات الكونية الدالة على حكمة المولى – جلّ وعلا – وعظمته، بيّن في الآية التي وليتها السبب الداعي للغفلة والانصراف عنها، ثم شرع في بيان مآل ومصير كل من الفريقين يوم القيامة، وما يكتب للكافرين من هلاك وخسران، وللمؤمنين من فوز ونجاة(٣).

ورغم أن الحديث هنا عن المتقين إلا أن الخطاب موجّه للكافرين تعريضاً(٤) بغفلتهم عن آيات الله التي لا يغفل عنها إلا من أعمى الكفر والضلال بصره وبصيرته، وتنبيها إلى أن سبب ذلك افتقارهم إلى تقوى الله(٥)، ولأنهم لم يعملوا بموجب ما تدل عليه هذه الآيات من عظمة الخالق

---

(١) يونس ١، ٢.

(٢) فتح القدير ٢/٤٢٦.

(٣) السابق نفسه.

(٤) التعريض لغة: "خلاف التصريح، يقال: عرّضت لفلان أو بفلان إذا قلت قولا وأنت تعنيه"، وفي الاصطلاح: "اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي". أو هو: "المعنى الحاصل عند اللفظ لا به" ينظر: الطراز ١/١٩٢.

(٥) التحرير والتنوير ١٠/٩٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحكمته ووحدانيته نزّلهم منزلة المنكر، فساق لهم الخبر مؤكدًا بأكثر من مؤكد، وهذه المؤكدات هي: (إن)، و (لام الابتداء)، والجملة الإسمية التي يُعدّ التعبير بها أحد طرق التأكيد ؛ لدلالتها على الدوام والثبوت.

وقد أضفى أسلوب القصر – بتقديم ما حقه التأخير – على المتقين في قوله: ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ هالة من التشريف والتكريم لدلالته على اختصاصهم بالآيات العظيمة التي بثّها المولى – عزّ وجلّ في هذا الكون الفسيح، فمع أنها جعلت لمخاطبة عقول وقلوب البشر جميعا إلا أنه لما كان المتقون هم وحدهم المتّعظون والمعتبرون بما تدل عليه وما تهدي إليه كانت كأنها قد جعلت لهم وحدهم دون سواهم، فقصرت عليهم قصرًا إضافيًّا ؛ للمبالغة في مدحهم وذمّ من عداهم ممن يمّرون عليها وكأنهم لا يرونها.

ومن يتأمل كتاب الله – تعالى – يدرك أنه قد اهتم كثيرًا بعرض الآيات والشواهد الكونية للفت الأنظار ؛ لما فيها من دلائل تقطع بوحدانية الله – عزّ وجلّ – وبصدق ما جاء به المصطفى – ﷺ – لأن ما بني على أساس عقلي يكون أمكن وأرسخ في النفس، ولهذا حرص القرآن الكريم على أن يقرن هذه الآيات بما يحفز الإنسان على استثمار ما منحه الله من ملكات وقدرات عقلية، ولذلك ختم الكثير منها بما يعول على أسباب الإدراك العقلي كالتذكّر والتفكّر، أو منافذ الإدراك العقلي كالسمع والبصر.

ولكن الأمر في هذه الآية مختلف ؛ فالمعول عليه هنا هو خُلُق له بُعدٌ وجداني أكثر من أن يكون عقليًا، ولعل هذا يدعونا للتساؤل عن سبب اختصاص المتقين بالذكر في هذه الآية، فإذا كان السبب في ذلك – كما أسلفنا – هو التعريض بالكافرين، والتنبيه لسبب غفلتهم عن آيات الله، فلماذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خالف بينها وبين الآية التي سبقتها، فجعل الآيات هنا (لقوم يتقون)، وفي التي سبقتها (لقوم يعلمون) ؟

ولكي نجيب على هذا التساؤل دعونا نعود إلى سياق الآيـة، فقد جاءت في سياق الرد على دعوى المشركين في إنكار نبوّة الرسول - ﷺ - ونقض الحجج الواهية التي يتعلقـون بها، ولعل أشد ما دفعهم للإنكار هـو الاختلاف الكبير والتباين الشديد بين الحال التي كان عليها والتي آل إليها - ﷺ - حيث حكى عنهم القرآن زعمهم بأن القرآن لو أُنزل على رجل عظيم لكان ذلك مما يقبله العقل ويصدقه، قال تعالى: ﴿ وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾(١)، ولذلك جاءت هذه الآيات لتثبت أن الله - سبحانه وتعالى - حكمة بالغة في كل ما يقضيه من اختلافـات سـواء بـين الكائنات والمخلوقات، أو بين الأحوال بتبديلها وتغييرها وعدم ثباتها على حال واحدة، فقد خالف بين الشمس والقمر فجعل هذه ضياءً وهذا نوراً، وخالف بين أحوال القمر فقدّره منازل يختلف كل منها عن الآخر، وخـالف بـين الليـل والنهار، وفي كل ما خلق الله - سبحانه وتعالى - في السموات والأرض نجد سنّـة الاختلاف واضحة جليّـة سواء كان الاختلاف بمعنى عدم التشـابه، أو بمعنى التبدل والتغيّر، وعدم الثبات والاستقرار.

ولعل التركيز على هذا المغزى هو الذي دفع إلى التركيـز علـى ظاهرة اختلاف الليل والنهار؛ لكونها من أكثر الظواهر الكونية دلالة علـى ذلك؛ ولأن الإنسان يتعايش معها يوميًا مما يجعلها قريبة من فهمه وإدراكه. ولمّا كان التركيز هنا على سنّـة الاختلاف والتغيّـر والتبدّل قدّمت هـذه الظاهرة ونبّه لها مرتين مرة بشكل منفرد، وأخرى على سـبيل الإجمـال

---

(١) الزخرف ٣١.

لكونها داخلة في عموم ما خلق الله في السموات والأرض، فسبقها إطناب بذكر العام بعد الخاص؛ تنبيهًا لأهمية الخاص في الدلالة على المغزى الذي تشير إليه الآية.

وقدّم الليل على النهار في قوله ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ لكونه الأسبق إيجادًا، والسموات على الأرض في قوله ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ لشرفها وأفضليتها لعظم ما احتوت عليه، وفي ذلك دليل من دلائل الإعجاز القرآني وسموّه عن كل مقدرة بشرية.

وقد خصّ (المتقين) في هذه الآية، و(الذين يعلمون) في الآية التي سبقتها في قوله تعالى: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[1]؛ لأن الآية السابقة تتحدث عن المنفعة الدنيوية المترتبة على سنّة الاختلاف والتغيّر والتبدّل، فكلما ازداد المرء علمًا بما يترتب عليها من منافع ازداد إيقانًا بأن كل ما يقضيه الله – سبحانه وتعالى – إنما يكون لحكمة عظيمة سواء علمناها أم جهلناها، أما هذه الآية فتشير إلى العظة التي يستفيدها الإنسان من تلك السنّة الكونية التي تدل على أن الحياة الدنيا بمجملها قائمة على أساس عدم الثبات والاستقرار، فهي في حالة تقلّب وتغيّر دائم، ودار هذه صفتها ينبغي عدم الركون والاطمئنان لها. وقد ناسب ذلك أن تجعل هذه الآيات للمتقين، وذلك لأن المتقين هم أكثر الناس استشعارًا لهذه الحقيقة، فهم لم يتخذوا التقوى زادًا إلا لأنهم لما تفكّروا في الدنيا وتقلّب أحوالها علموا أنها إلى فناء، فأعرضوا عنها، وعلّقوا آمالهم بالدار الباقية، فاستشعار هذا المعنى يُلقي خوف الله وخشيته في القلب، والتقوى هي المجسّد لحقيقة

---

(1) ...

الخوف والخشية، ومدى تمكنهما من نفس المؤمن.

وجاء التعبير بالجمع المنكّر (آيات) في قوله: ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ مناسبًا للمغزى من الخطاب في هذه الآية؛ لإفادته التعظيم، والتكثير والتنويع، فإن هذه الآيات لكثرتها وعظمتها لا يغفل عنها إلا من أصم سمعه وأعمى بصره عن رؤية الحق[١].

واستدعى مقام التعريض بالكافرين وغفلتهم الشديدة عن آيات الله - تعالى- أن يأتي التعبير بالفعل الدال على الحدوث والتجدد (يتقون) ولم يعبر بالاسم (المتقين)؛ للدلالة على أن الاعتبار بما في هذا الكون الفسيح من آيات يحصل حتى وإن لم تكن التقوى خلقًا ثابتًا مستقرًا في النفس، فإن تعلّق الإنسان بأدنى درجاته حتى ولو على سبيل الحدوث والانقطاع من شأنه أن يفتح عقله وقلبه للاتعاظ والاعتبار، فدلّ ذلك على شدة بُعدهم عن التقوى وانقطاع أي صلة تربطهم بها، مما أدى إلى شدة غفلتهم عن دلائل الحق وآياته.

وقد تعيّن – مع كثرة هذه الآيات وعظمتها – أن التقوى لا يستحقها إلا المولى – عزّ وجلّ – فكان لحذف مفعول الفعل (يتقون) في قوله: ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أبلغ الأثر في الدلالة على ذلك مع ما فيه من مراعاة لمناسبته لفواصل الآيات، فإنه لما تقدم ما يشير إلى حكمة الله – سبحانه وتعالى – وعظمته وقدرته على تصريف الأمور كيفما يشاء تعيّن أنه هو وحده المستحق لأن يُخشى ويُتّقي عقابه بإخلاص العبادة له – عزّ وجلّ – فسوّغ ذلك حذف المفعول للإيجاز والاختصار خاصة وأن العناية هنا موجّهة إلى إثبات الفعل للفاعل؛ لبيان سبب اختصاص المتقين بهذا الشرف العظيم [٢].

---

(١) روح المعاني ٧٢/١١.

(٢) مفتاح العلوم ٣٣٤، كذا ال...

المبحث الرابع: خصائص النظم القرآني في بيان صفات المتقين

عني القرآن الكريم بالتقوى والمتقين عناية فائقة، حيث جاءت الآيات القرآنية متحدثة عن صفات المتقين، ومركزة عليها كوسيلة لتربية النفوس على التقوى، وغرس هذا الخُلق الإسلامي الرفيع في وجدان كل مسلم.

ولم يكن ذلك المديح والثناء على المتقين من خلال ذكر ما تحلّوا به من صفات حميدة تكريما لهم فحسب، بل كان الهدف الأسمى منه هو توضيح المنهج الذي بسلوكه يستطيع المسلم أن يرتقي مع تلك الزّمرة السعيدة ليحظى بجنّة الله تعالى ورضوانه.

وقد كان للنظم القرآني البديع الذي اتصفت به تلك الآيات دورًا مهمًا في تحقيق تلك الغاية السامية، حيث استعمل أساليب متنوعة ؛ للتأثير في المخاطب، وترغيبه في التقوى، ودفعه للتحلّي بها.

لقد بلغت الآيات الواردة في بيان صفات المتقين المنزلة العليا التي لا تُضاهي في التفوق البياني، والسموّ البلاغي، فامتازت ألفاظها بالعذوبة والسهولة، والقدرة على أداء المعاني بدقّة متناهية لا نظير لها، فألفاظها موحية معبّرة، تحيط بالمعنى من جميع جوانبه، وتتّسع لكل ما يحتمله المقام من دلالات وإيحاءات تخدم المعنى، وتؤديه ببلاغة عالية، أما جرسها وأصوات حروفها فقد جاءت عذبة رقيقة، مناسبة لموضوع الترغيب في التقوى، والحثّ على التخلّق بها، وبيان المنزلة الرفيعة التي يتبوّأها المتقون.

فعندما نتأمل المفردة القرآنية ضمن نسيج الجملة التي ترد فيها نلمح

بلاغة في أسمى معانيها، تلك التي تكمن في اختيـار الألفـاظ الملائمة

للمعنى، والغرض المراد من الآية، والسياق الذي وردت فيه، فترى الكلمة

وهي تتآلف مع رفيقاتها في الجملة، وتتضافر معها لأداء المعنى المراد،

متناغمة، فلا تنافر ولا تباعد؛ لأن جودة السبك، وبراعة الـنظم، وبلاغة

الصياغة تجعل من الجملة القرآنية نمطًا فريدًا من القول لا يمكن مضاهاته،

وترى الجملة وقد كُـوِّنت من كلمات اختيرت بدقة، ثم نُسِّقت في سلك من

النظام والتأليف بأسلوب بديع؛ لإبراز صفات المتقين، وبيان منزلتهم الرفيعة

ببلاغة لا نظير لها.

وإلى جانب حسن اختيار الألفاظ المعبِّرة عن المعنى المقصود، فقد تتسم كذلك بحسن صياغة الجمل والتراكيب، فجاءت كل كلمة لتنفـذ مع أختها، لا يسدّ غيرها مسدّها، وكأنما هو نسيج متكامل، كل قطعة منه تكمل صورته، وتوحّد غايته، فالجملة القرآنية تتميز بجودة السبك، ودقة الـنظم، وبراعة التعبير، مما يجعلها نمطًا فريدًا من القول يتبوأ منزلة عالية حتى وصل إلى درجة الإعجاز.

فقد روعي في تركيب الجملة خدمة المعنى، وإبـرازه فـي أبهى صورة، وأشرف بيان. وقد ظهر ذلك جليًا من خلال التقديم والتـأخير[1]، والتوكيد[2]، والتعبير بالفعل المضارع[3] الدال على التجـدد والاستمرار، وبالماضي[4] للدلالة على تحقق الوقـوع، والتعبيـر بالجملـة الاسمية

---

(١) ينظر: ص٢١، ٢٢، ٢٥، ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٦٣ من هذا البحث.

(٢) ينظر: ص٢١، ٣٠ من هذا البحث.

(٣) ينظر: ص٢٢، ٢٣، ٤٢ من هذا البحث.

(٤) ينظر: ص٢٤، ٤١، ٥٠ من هذا البحث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جامعة الأزهر
مكتبة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

والفعلية(١)، وكذلك الإفراد والجمع والتعريف والتنكير(٢)، وكذلك الذكر والحذف(٣)، والإيجاز(٤) والإطناب(٥)، والفصل والوصل(٦)، والقصر(٧)، والمجاز المرسل(٨) والعقلي(٩)، والاستعارة(١٠)، فضلا عن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر(١١)، والجناس(١٢)، والمشاكلة(١٣)، والتعريض(١٤)، والجرس والإيقاع(١٥)، والتتميم(١٦)، وصحة التقسيم(١٧)، وغير ذلك مما ورد عند تحليل الآيات، واستنباط أسرار التعبير في مواضعها من السياق.

ومن أهم خصائص أسلوب القرآن في بيان صفات المتقين مراعاة التلاؤم والتناسب فيما تتضمنه تلك الآيات، فإذا بها كالدّرر المنظومة في

---

(١) ينظر: ص٣٠، ٣٢ من هذا البحث.

(٢) ينظر: ص٤٢، ٤٣، ٦٤ من هذا البحث.

(٣) ينظر: ص٢٥، ٤٠، ٤٧، ٥٨، ٦٥ من هذا البحث.

(٤) ينظر: ص١٧، ١٨، ٣١، ٤٧، ٥٠، ٥١،٥٨، ٦٥ من هذا البحث.

(٥) ينظر: ص٢٣، ٤٤، ٦٣ من هذا البحث.

(٦) ينظر: ص١٦، ٢٢، ٢٦، ٣٠، ٥٠ من هذا البحث.

(٧) ينظر: ص٢٩، ٣٨، ٤٠، ٥١، ٦١، ٦٢ من هذا البحث.

(٨) ينظر: ص٣٩، ٤٧ من هذا البحث.

(٩) ينظر: ص٤٠، ٤٥ من هذا البحث.

(١٠) ينظر: ص٢٧، ٢٨، ٤٥، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٥٩ من هذا البحث.

(١١) ينظر: ص٥٣ من هذا البحث.

(١٢) ينظر: ص٤٩ من هذا البحث.

(١٣) ينظر: ص٢٤ من هذا البحث.

(١٤) ينظر: ص٦١، ٦٢، ٦٤ من هذا البحث.

(١٥) ينظر: ص٣٢، ٣٣ من هذا البحث.

(١٦) ينظر: ص٢٨، ٤٤ من هذا البحث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عقد واحد بتآلف وانسجام، مما يحقق تـناسق النص القرآني.

فكل آية من تلك الآيات اختارت التعبير المناسب الـذي تقـتضيه بلاغة القول وسموّ البيان.

ويتجلى الإيجاز وحسن البيان في بيان صفات المتقين، فلـم تلجأ الآيات إلى الإسهاب والتطويل، أو الشرح والتفصيل لبيان المعنى المـراد، وأينما قلّـبنا نظرنا في تلك الآيات فلن نجد إلا جملًا مختصرة، وعبـارات موجزة تعتمد على الاختصار والإيجاز، فتؤدي المعاني العظيمة، والدلالات الغزيرة بإيجاز غير مخلّ، لا يبخس المعنى حقــه، بـل يزيـده بيانـًا ووضوحًا، ويجعله أقوى تأثيرًا في النفس، وأكثر رسـوخا في الذهن.

كما أن النظم القرآني في بيان صفات المتقـين يتّـسم – في بعض صوره – بالاعتماد على التصوير الفني كوسيلة للتأثير من خلال توظيـف اللغة بكافة أدواتها وإمكاناتها، فالقرآن الكريم وهو يتحدث عن المتقـين لا يصفهم وصفا مجردًا جامدًا بل يتّـبع أسلوبًا تصويريًّا يبثّ الحركة والحياة في تلك الصفات، ويجعلنا نشعر بتلك الشخصيات الرائعة، وكأننا نتعـايش معهم، ونلمس بإحساسنا ووجداننا مدى حرصهم على الطاعـة واجتهـادهم فيها، وينقلنا إلى عالمهم الخاص، وحياتهم المليئة بالعمل والمثابرة، ومـن خلال ذلك الوصف الحيّ نشعر أننا نعرف تلك الشخصيات، ونراها ماثلـة أمام أعـيننا، فنلمح نور الإيمان الذي تفيض به وجوههم، ومشاعر اليقـين التي تمتلئ بها قلوبهم.

ولا نستطيع أن نغفل دور الاستعارة كوسيلة من وسائل التصـوير التي اعتمد عليها القرآن الكريم؛ لنقل المعنى من صورته المجردة، الجامدة إلى صورة محسوسة ماثلة للعيان، يبدو ذلك واضحا مـن خـلال صـور

الاستعارة الواردة في ثنايا البحث، وأرغب عن ذكرها هنا حذر التكرار(١).

ولعل اعتماد النظم القرآني في بيان صفات المتقين على التصوير بالاستعارة دون غيرها من فنون البيان؛ لقدرتها على تجسيد المعاني المجردة، وبثّ الحياة فيما لا حياة فيه، والتعبير عن المشاعر والمعاني النفسية، وتصوير الحقائق والأمور الغيبية تصويرا يقرّبها لأذهان المخاطبين بما يستعار لها من أمور مدركة محسوسة، كما أنها " تصوّر المعنى للسامع تصويرًا مؤثّرًا في النفس، فيقرّ في الأذهان، مع الإيجاز والمبالغة المقبولة"(٢).

ونلحظ أن التصوير الفني الذي اعتمده النظم القرآني في بيان صفات المتقين يتميز بالبعد عن التعقيد والإبهام والغرابة، فالصور التي يقدمها القرآن الكريم واضحة، يسعى من خلالها إلى إبراز المعنى، وإيصاله إلى المخاطبين في أكمل صورة للتأثير فيهم.

كما يتميّز - أيضا - بالجمع بين الدقة والإيجاز، حيث يرسم للمتلقي - بالكلمة المفردة، والعبارة الموجزة - صورة متكاملة للمعنى المراد، تحيط به وتؤديه بدقة متناهية إلى جانب كل تلك المقوّمات البلاغية التي أكسبت أسلوب النظم القرآني في بيان صفات المتقين سموًّا بلاغيًا، وإعجازا بيانيًا أظهر لنا صورة مشرقة للمتقين من خلال ما تحلّوا به في الدنيا من صفات حميدة، وخلال كريمة، إلى جانب ذلك كله يتجلّى لنا في هذه الآيات نمط فريد من السحر البياني الذي تهتز له القلوب، وتنجذب إليه النفوس، ذلك السحر البياني الكامن في نغم القرآن وجماله الصوتي الذي هو

---

(١) ينظر: ص٢٧، ٢٨، ٤٥، ٤٧، ٥٤، ٥٥، ٥٩ من هذا البحث.

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم ١٩٧.